عبدالله أحمد اليوسف

مسائل التجديد

قراءة لقضايا التجديد في فكر الإمام الشيرازي

مسائل التجديد

قراءة لقضايا التجديد في فكر الإمام الشيرازي

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ
الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ
إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾

سورة البقرة: الآية ٢٦٩

المحتويات

المحتويات ٧
المقدمة ٩
المدخل إلى الكتاب ١٣
الفصل الأول: مسألة التجديد في الفقه ١٧
الاجتهاد والتجديد ١٩
ضرورات التجديد ٢٥
١ـ الثابت والمتغير ٢٥
٢ـ الزمان والمكان ٢٩
٣ـ مواكبة متغيرات العصر ٣٦
التجديد في الفقه ٣٩
١ـ استعراض الأدلة ٤٦
٢ـ كثرة التفريعات ٤٦
٣ـ استحداث أبواب جديدة ٤٧
الفصل الثاني: مسألة التجديد في الأفكار ٥٥
التجديد في الأفكار ٥٧
أهم الأفكار ٦٠
١ـ التوعية الثقافية ٦٢
٢ـ السلام ٦٥
٣ـ الأخوة الإسلامية ٦٩

٤ـ الأمة الإسلامية.....٧٢
٥ـ الوحدة الإسلامية ٧٣
٦ـ الحرية الإسلامية.....٧٦
خلاصة الأفكار ٨١
الفصل الثالث: مسألة التجديد في الحوزات العلمية ٨٥
التجديد في الحوزات العلمية ٨٧
منهج التجديد ٩٣
١ـ التربية الأخلاقية.....٩٤
٢ـ المزاوجة بين العلم والعمل.....٩٦
٣ـ استحداث دروس جديدة.....٩٩
٤ـ فهم العصر ١٠١
الفصل الرابع: مسألة التجديد في المرجعية الدينية ١٠٧
التجديد في المرجعية الدينية ١٠٩
مسؤوليات المرجعية الدينية.....١١٤
مشروع التجديد في العمل المرجعي ١٢٠
١ـ مأسسة الأعمال.....١٢٠
٢ـ تنوع المشاريع.....١٢٢
٣ـ الانتشار والتركيز ١٢٣
٤ـ استقطاب الكفاءات.....١٢٥
٥ـ تطوير وسائل العمل ١٢٧
الخاتمة ١٣١

المقدمة

تعتبر شخصية الإمام السيد محمد الشيرازي (١٣٤٧ ـ ١٤٢٢هـ) شخصية متميزة، وذات أبعاد متعددة، فقد كان فقيهاً متبحراً في الفقه، ومن أكثر الفقهاء المعاصرين إنتاجاً في المادة الفقهية حتى يُخَيَّل إليك أنه منقطع إلى الفقه وليس له علاقة بغيره من العلوم..!

وعندما تقرأ كتبه الثقافية والفكرية الكثيرة والمتنوعة تتصور أنك تقرأ لمفكر مبدع ليس له علاقة بغير ميدان الفكر والثقافة...!

أما عندما تنظر إلى مشاريعه ومؤسساته المتعددة تظن أنك أمام شخصية مهتمة بالشأن الخيري والتطوعي ليس أكثر من ذلك ولا أقل..!

أما عندما تلقي نظرة فاحصة على كل كتبه فقد لا

تصدق أن كل هذه الكتب لشخص واحد، فقد تجاوزت مؤلفاته الألف كتاب...!

وحينما تقرأ مذكراته وسيرته مع الحكام تجد نفسك أمام مجاهد صلب في سبيل اللَّه، لا يخاف في اللَّه لومة لائم، يجهر بالحق، ويقف ضد الأخطاء، ويعادي أعداء اللَّه، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر... وهكذا كانت حياته حياة جهاد وكفاح من أجل الحق والعدل والحرية...!

أما عندما تتشرف بزيارته وتجلس عنده فستجد نفسك أمام شخصية تتحلى بكل مكارم الأخلاق، ومحاسن الصفات؛ فهو شديد التواضع، كثير الاحترام، دائم الابتسامة، ما زاره أحد إلا وأحبه، وأكْبَرَ فيه عظيم أخلاقه، وحسن استقباله...!

وعندما تبحث عن صفات العظماء والزعماء من الشجاعة الفائقة، والإرادة القوية، والنشاط المتواصل، والعمل الدائم، والعبقرية المتميزة... فسوف تجدها في شخصية الإمام الشيرازي.

كل ذلك وغيره كثير تتجمع في شخصية واحدة، في رجل واحد؛ إنه بحق أمة في رجل، ونادرة من نوادر التاريخ، إذ قَلَّما يجود التاريخ بمثل هؤلاء الرجال المتميزين.

فالإمام الشيرازي شخصية متميزة في كل شيء... في سيرته،

وفي سلوكه، وفي فكره، وفي عطائه، وفي إخلاصه، وفي جهاده، وفي زهده، وفي مواقفه... وفي كل بعد من أبعاد شخصيته.

والحديث عن شخصية الإمام الشيرازي يحتاج إلى مجلدات ومجلدات... ولذلك رأيت في هذا الكتاب أن أركز على بعد واحد من أبعاد شخصيته العظيمة وهو ما يرتبط بمسائل التجديد في فكر الإمام الشيرازي.

فقد كان الإمام الشيرازي شخصية مجددة حتى سمي بالمجدد، وهو بحق كذلك، فقد كان مجدداً في الفقه، ومجدداً في الفكر والثقافة، ومجدداً في الحوزات العلمية، ومجدداً في المرجعية الدينية... وهذه هي المحاور الرئيسة التي ركزت عليها في هذه الدراسة المختصرة لاستعراض مسائل التجديد في فكر الإمام الشيرازي (رضوان اللّه تعالى عليه).

وقراءة مسائل التجديد في فكر الإمام الشيرازي مهمة للغاية لأنها أولاً: نابعة من مرجع كبير للتقليد. ثانياً: تساهم القراءة الواعية في إنماء مسيرة التجديد في المؤسسة الدينية، ومن ثم تنشيط هَمّ الإصلاح والتطوير والتجديد في الأمة بهدف الخروج من مرحلة التخلف والجهل، وصولاً إلى ما تتطلع إليه الأمة من نهضة حضارية شاملة.

ثم إن قراءة قضايا التجديد في مسيرة المراجع والفقهاء

والعلماء يُسهم في تنمية الثقافة الواعية في الأمة، وزيادة الفاعلية في حركة المجتمع.

أضف إلى كل ذلك، إن ممارسة التجديد والتطوير والتحديث من قبل الفقهاء المراجع والعلماء الأفاضل يدل بوضوح على أن العلماء المتميزين كانوا على درجة عالية من فهم العصر، ومعرفة المتغيرات، ومواكبة الحوادث الواقعة... وهذا ما كان يدفعهم إلى التجديد، سواء كان ذلك في عالم الأفكار، أو في حقل الاجتهاد الفقهي والأصولي، أو في وسائل وأساليب العمل الديني، أو حتى في إدارة جهاز المرجعية الدينية... أو في كل شيء قابل للتجديد.

وختاماً.. أبتهل إلى المولى عز وجل أن يجعل هذا المجهود المتواضع في ميزان أعمالي، وأن ينفعني به في آخرتي، إنه ـ تبارك وتعالى ـ محط الرجاء، وغاية الأمل، وينبوع الرحمة والفيض والعطاء.

والله المستعان

عبدالله أحمد اليوسف
الثلاثاء ١٢/ ١/ ١٤٢٣هـ
٢٦/ ٣/ ٢٠٠٢م

المدخل إلى الكتاب

يعتبر الإمام الشيرازي قدس سره شخصية متميزة بكل المعايير والمقاييس، فقد كان شخصية متعددة الأبعاد والجوانب؛ فقد جمع رحمه الله بين التعمق في الفقه والأصول والتضلع في الفكر والثقافة، وجمع بين فهم السياسة ومعرفة الاقتصاد. كما زاوج بين العلم والعمل، والأصالة والمعاصرة، والقديم والجديد... ولذلك كله؛ لم يكن الإمام الشيرازي مجرد مرجع تقليد فحسب؛ بل كان ـ بالإضافة إلى ذلك ـ صاحب مشروع فكري وحضاري. كما أن الإمام الشيرازي لم يكن مجرد عالم فقط؛ وإنما كان عبقرياً بكل ما لكلمة العبقرية من معنى.

ويعتبر الإمام الشيرازي مؤسساً لمدرسة فكرية متميزة ومستنيرة، وقد تخرج من هذه المدرسة المتميزة العديد من الفقهاء والمجتهدين والعلماء والخطباء والكتاب المبدعين. وقد

ساهمت هذه المدرسة الفكرية في زيادة مساحة التدين في المجتمع، وتعميق الوعي الديني لدى كل الشرائح الاجتماعية، واستقطاب الشرائح المؤثرة في المجتمع كشريحة المثقفين وشريحة الشباب والشبائب.

وقد استطاع الإمام الشيرازي بعلمه وعمله استقطاب العديد من أصحاب الكفاءات المتميزة والمستنيرة، كما استقطب كل ألوان الطيف الفكري والثقافي. وذلك لما تميز به سماحته من سمات شخصية مؤثرة، ومؤهلات قيادية قوية.

وقد حمل الإمام الشيرازي على عاتقه مسؤولية إنهاض الأمة من سباتها، وإنقاذها من براثن الجهل والتخلف والفقر.. وهذا ما جعله رائداً من رواد الإصلاح والتجديد بهدف بعث روح النهضة والإحياء والتقدم في المجتمع والأمة.

ولأن التجديد والإصلاح بحاجة إلى ثقة بالنفس، وصلابة في الموقف، وشجاعة في الجهر بالرأي ولو كان مخالفاً للمشهور أو السائد في الأوساط العلمية أو في الأعراف الاجتماعية؛ ولأن الإمام الشيرازي كان يتميز بمثل هذه المواصفات.. فقد كان واحداً من أبرز دعاة الإصلاح والتجديد في الفقه والأصول، كما في الأفكار والآراء، كما كان مجدداً في الحوزات العلمية، والمرجعية الدينية.

ولأهمية موضوع التجديد وحيويته في مسيرة المجتمع والأمة سأتناول في هذه الدراسة المختصرة هذا البعد الهام من أبعاد شخصية الإمام الشيرازي قدس سره، محاولاً تسليط الأضواء على الفكر التجديدي عند الإمام الشيرازي على أمل أن يُساهم ذلك في تفعيل وإنماء حركة التجديد في مختلف جوانب وحقول الفكر الديني.

مسائل التجديد

قراءة لقضايا التجديد في فكر الإمام الشيرازي

الفصل الأول

مسألة التجديد في الفقه

الاجتهاد والتجديد

يمثل الاجتهاد في عصر الغيبة الكبرى الوسيلة الوحيدة لبيان أحكام الدين، والإجابة على تساؤلات المكلفين، وتوضيح رأي الإسلام تجاه المستجدات الحادثة. فالاجتهاد ـ كما يعرفه السيد الشيرازي ـ بأنه «استفراغ الوسع في تحصيل الحجة على الحكم الشرعي» وبعبارة أخرى «في تحصيل الحجة عن مدرك شرعي»[1] وبدون ممارسة الاجتهاد لا يمكن معرفة الكثير من أحكام اللّه عز وجل، فالمجتهد هو وحده القادر على استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها.

ويقوم المجتهدون بدور ضروري ومهم لبيان الحلال والحرام، والإجابة على الاستفتاءات المختلفة، وتوضيح رأي الشارع المقدس تجاه مختلف القضايا المطروحة. إلا أن ضرورة الاجتهاد تبدو أكثر أهمية عندما تلامس قضايا الواقع، ومشكلات الحاضر، ومستجدات (الحوادث الواقعة) والتي

تتزايد وتيرتها بصورة تصاعدية نتيجة التقدم الهائل في مختلف المعارف والعلوم، وانفجار المعلومات بشكل مذهل؛ مما أوجد الكثير من الإشكاليات الجديدة، والمسائل المستجدة والتي تتطلب من المجتهدين أجوبة مفصلة كي يسير الناس وفق هديها.

وبناء على ذلك تأتي أهمية التجديد في الاجتهاد، والتجديد يجب أن يشمل مناهج الاجتهاد، ومجالات وحقول الاجتهاد إذا ما أريد لحركة الاجتهاد أن تنمو وتتطور وتستجيب لمتطلبات وتحديات العصر.

والتجديد بحاجة إلى عقلية مبتكرة، وجهد مضاعف، وثقة بالنفس، وشجاعة في الجهر بالرأي، وممارسة النقد العلمي. فالمهم هو اتباع الدليل والحجة، ومنهج البحث العلمي في الاجتهاد. وبدون ذلك لا يمكن ممارسة التجديد في أي حقل من حقول المعارف الدينية.

وتبدو الحاجة إلى التجديد في الألفية الثالثة أكثر من أي وقت مضى وذلك لضخامة التساؤلات المثارة حول قدرة الإسلام على إدارة الحياة، وعلى أنه صالح لكل زمان ومكان. ومن جهة أخرى زيادة مساحة الأسئلة المعاصرة التي تحتاج إلى رأي شرعي، وتضاعف الإشكالات المطروحة من قبل

الشباب والمثقفين. كما أن ضغوط الثقافة الغربية في عصر العولمة الثقافية قد أفرز العديد من الإشكاليات الجديدة التي تحتاج إلى أجوبة تفصيلية ومعمقة ومقنعة.

أضف إلى ذلك أن من طبيعة الأشياء التجدد والتطور، وأن الحياة في تغير مستمر، والموضوعات تتغير وتتبدل؛ ولذلك ينبغي للمجتهد الذي يمتلك القدرة على الاستنباط إعمال النظر والرأي في القضايا الجديدة، وعدم التجمد عند المسائل التي سبق للفقهاء أن أجابوا عليها بصورة مفصلة. كما أن ما سبق للفقهاء أن بحثوه وركزوا عليه ليس بالضرورة هو ما يحتاج إلى بحث وتركيز في عصرنا؛ إذ أن لكل عصر مشكلاته وقضاياه ومسائله. فالتركيز على المسائل القديمة وحدها وإهمال المسائل المعاصرة يؤدي إلى أضرار جسيمة وفادحة أقلها: ابتعاد المثقفين والشباب عن التوجه الديني، وربما التأثر بالأفكار الفاسدة والمنحرفة والمشككة في الإسلام وأصوله وفروعه. ولذلك تبدو الحاجة ملحة إلى التركيز على المسائل الحديثة، والقضايا الحادثة، والإجابة على الإشكاليات المعاصرة بروح علمية ومنطقية.

وعادة ما يظهر في كل شريحة من الشرائح العلمية والاجتماعية فئة متميزة يكون لها القدرة على التجديد

والتطـوير والإبـداع. وشـريحة الفقهـاء تخضـع لـنفس هـذا القانون الطبيعي؛ إذ تبرز في هذه الشريحة المهمة فئـة متميـزة في فكرها وعلمها وإبداعها. ويعتبر الإمام الشـيرازي واحـداً من أبرز دعاة التجديد والإصلاح في القـرن العشـرين؛ فقـد امتلك عقلية مبدعة ومبتكرة مكنتـه مـن الإبـداع والتجديـد والتطوير في مختلـف حقـول المعرفـة الدينيـة وبالخصـوص في علم الفقه وأصوله.

فالإمـام الشـيرازي يـرى أن مـن مهمـة الفقيـه المجتهـد « التعرض لأحكام المسـتحدثات مـن الأمـور، والمتطـور مـن الأوضاع، ببيان حكم الإسـلام فيهـا، كبيـان حكـم الإسـلام بالنسبة إلى (وسائل الإعـلام) و (المواصـلات) و (الكشـوف الجديدة) و (الآفاق المكتشفة) و (التطور الحاصل في الزراعـة والتجارة والصـناعة والاقتصـاد والطـب) و (منهـاج الحكـم بأقسامه المختلفة) إلى غيرها »[٢].

وقد قام الإمام الشيرازي بالفعـل بتـأليف الكـثير مـن الكتب التي تتناول القضـايا المعاصـرة، والمسـائل المسـتجدة. كما أجاب في العديد من كتبـه علـى الإشـكاليات المطروحـة حول الإسلام، وأوضح بجـلاء عظمـة الإسـلام وقدرتـه علـى إدارة الحياة، وأنه منهاج للدين والدنيا.

وقد تميز الإمام الشيرازي بطرق موضوعات لم يسبق لغيره أن طرقها ـ وسيأتي الحديث عنها في الصفحات القادمة ـ وأعمل رأيه واجتهاده فيها، وقد أبدع في هذا المجال بما لم يسبق إليه أحد غيره؛ وهذا ما جعل منه قدس سره مجتهداً مبدعاً ومتميزاً. كما أنتج الإمام الشيرازي مجموعة ضخمة من الكتب التي تتناول قضايا الثقافة والفكر، وقضايا السياسة والاقتصاد، وقضايا الحكم والدولة.. مما جعل منه قدس سره مدرسة فكرية متكاملة.

فالاجتهاد ـ عند الإمام الشيرازي ـ يشمل بالإضافة إلى مسائل الفقه الفردي ما يرتبط بفقه الحياة، وفقه المجتمع، وفقه البيئة، وفقه القانون، وفقه الدولة... وهذا ما جعله ـ بحق ـ مجتهداً مجدداً ومبدعاً ومتميزاً ومبتكراً.

ضرورات التجديد

تنبع أهمية التجديد في الفكر والثقافة، والاجتهاد في القضايا المعاصرة من مجموعة من العناصر المهمة والضرورية والتي يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

١- الثابت والمتغير:

يمتاز الإسلام ـ ضمن ما يمتاز به من خصائص ـ بالمرونة، وهذه الخصوصية هي التي تمنح المنهج الإسلامي القدرة على استيعاب ومواكبة مستجدات العصر.. ولمعرفة ذلك لابد من معرفة أبعاد الإسلام حيث يتكون من بعدين أساسيين وهما:

الأول: البعد الثابت:

ونعني به كل الأشياء أو الأمور التي لا تقبل التغير أو

التبـدل أو التجـدد بمـرور الـزمن، فهـي تتصـف بـالخلود والديمومة والثبات كالعقيـدة والعبـادة، حيـث لا تبـديل ولا تغيير فيهما بمرور الزمان والمكـان. فالعقيـدة حقيقـة ثابتـة في ذاتها، ولا تقبل التغيير والتجديد مهما طال الزمن وتبـدلت الأحـوال؛ لأن طبيعـة الموضـوع تـأبى ذلـك. والعبـادة هـي الأخرى غير قابلة للتبديل والتغيير مهما تغير الـزمن وتبـدل بعد أن حُددت معالمها بصورة نهائية وحتمية وقطعية.

ومن الأشياء الـتي لا تقبـل التبـديل والتغـيير: مبـادئ الأخلاق الثابتة، والقيم الإنسانية الفاضلة؛ فالصدق ـ مثلاً ـ يبقى حسناً في ذاته، والكذب يبقى قبيحاً في ذاته، رغم تغـير الزمان والمكان. فلا يمكن أن نتصور في يوم من الأيام أنـه قـد تحول الصدق من شيء حسن في ذاته إلى شيء سيئ في ذاتـه، أو أن الكذب قد تحول من شيء سيئ في ذاته إلى شيء حسن في ذاته!

الثاني: البعد المتغير:

ونعني به كل الأشياء والأمور التي تقبل التغير والتبـدل والتطور والتجدد، فقد يصلح شيء مـا لـزمن معـين ولمكـان معين، بينما قد يفقـد صـلاحية اسـتمراره في زمـن آخـر، أو

مكان آخر، أو فيهما معاً.

ومن الأمور التي تقبل التغير والتبدل والتطور: المعاملات تبعاً لتطور الزمان، وتغير المكان. وبتعبير آخر: الاجتهاد وفقاً للأصول والكليات والمناطات والملاكات العامة للتشريع الإسلامي.

ومن الأمور القابلة للتغيير والتجديد: العادات والتقاليد والآداب العامة.

ومن الأمور والأشياء القابلة للتغيير والتجديد والتطوير: كل ما يرتبط بالحياة العامة من وسائل وأدوات وآليات مشروعة.

ونظراً لهذه الخاصية في الإسلام فإن الموازنة بين الثابت والمتغير، والمطلق والنسبي، والمقدس وغير المقدس، والحقيقة والنظرية.. هو الذي يجعل الإسلام قادراً على البقاء والخلود والاستمرار رغم مستجدات الزمان والمكان[٣].

وقد أكَّد الإمام الشيرازي على ثنائية الثابت والمتغير في الإسلام، وأشار إلى أهمية الحفاظ على ثبات الجانب الثابت وخطر دخول التغيير أو التطوير فيه لأن ذلك يؤدي إلى الفساد. حيث يقول ﵀:

« للإسلام جانبان:

١ـ الجانب الثابت الـذي لا يصـح فيـه التطـور، وهـو الجانب الذي إن تسرب إليه التطور سبب الجنـون والفسـاد، مثلاً: حسن (الصدق) و (الأمانة) وقبح (الظلم) و (البخـل) وحرمة (الاحتكار) و (القتل) ووجوب (الصلاة) و (الصيام) ولزوم (رضا المتعاملين) وما أشبه ذلك.

٢ـ الجانب المتطور الذي يصح فيـه التبـديل والتغـيير، فإن الإسلام ذكر قواعد عامة تنطبـق علـى الأمـور المتطـورة، مثلاً: إذا تبدلت وسائل النقل من (دواب) إلى (عربـات) إلى (سيارة) إلى (طائرة) إلى (صاروخ)، وتبـدلت وسـائل الإنـارة من (شمـع) إلى (زيـت) إلى (كهربـاء) إلى (ذرة) وهكـذا فـإن الإسلام أباح هذا التطور، بل حث عليه في مختلف الحاجات.

وحيث إن الإسلام دين اللّه الذي أنزله لهدايـة البشـر إلى الأبد، واللّـه عـالم بكـل شـيء، لـذا كـان كـافلاً لجميـع حاجات البشر، حتى المتجددة منها »[٤].

ومن المهم للغاية فهم الثابت والمتغير من الـدين بدقـة ووعي كي لا تختلط علينا المفاهيم، وحتـى لا نقـع في أخطـاء فاحشة. كما أن المعرفة العميقة للثابـت والمـتغير مـن الـدين يجعلنا أكثر قدرة على التطوير والتجديد في ثقافتنا وفكرنا بما

يتناسب مع متطلبات كل عصر ومصر دون المساس بالأصول والقيم الثابتة في الدين.

٢- الزمان والمكان:

إن لتغير الزمان والمكان دوراً مهماً جداً في الإحساس بأهمية التجديد والتطوير في الأفكار والبرامج، وضرورة الاجتهاد في القضايا المتغيرة والمتحركة من الدين.

فالزمان والمكان في حالة تطور دائم، وتجدد مستمر، مما يستدعي بالضرورة التجدد والتطور في كل ما يقبل التجديد والاجتهاد. فالإنسان بما يملك من عقل خلاّق ومبدع قد مكَّنه من الارتقاء إلى أعلى درجات التقدم والتطور الحضاري. في حين أن عالم الحيوان لم يطرأ ولن يطرأ عليه أي تطور يُذكر، وذلك نتيجة لأن الحيوانات تسير بهدي من غرائزها التي أودعها اللَّه عز وجل فيها. وليس لديها القدرة على التفكير أو التدبر في شؤون حياتها؛ بينما حياة الإنسان حافلة بالتطور والتقدم والتجدد المستمر نتيجة لامتلاكه العقل والذي به يمارس عمليات التفكير والتفكر، والتدبير والتدبر، والإبداع والابتكار، والاختراع والاكتشاف... ولذلك نجد أن حياة الإنسان تسير دائماً نحو المزيد من التطور والتقدم. وما نراه اليوم من تقدم مذهل في شتى

جوانب الحياة كان يُعد من المستحيلات في الماضي القريب فضلاً عن البعيد.

وتأسيساً على ما مضى، يتضح أهمية وضرورة التجديد سواء في الأفكار أو البرامج أو حتى في الخطاب الديني. كما يتضح أهمية وضرورة ممارسة الاجتهاد في القضايا المعاصرة وتبيين الرأي الشرعي تجاهها. إذ أن للزمان والمكان تأثيراً حتى في استنباط الأحكام الشرعية. وقد أوضح ذلك بالتفصيل العلامة الشيخ جعفر السبحاني. ومن المفيد أن نقتطف من بحثه بعض النقاط التي ذكرها في دراسته حيث يقول: إن لتغير الأوضاع والأحوال الزمنية تأثيراً كبيراً في استنباط الأحكام الشرعية، والتأثير يرجع تارة إلى ناحية الموضوع وأخرى إلى جانب الحكم، وإليك البيان:

الأول: تأثير الزمان والمكان في صدق الموضوعات:

قد يراد من تبدل الموضوع تارة انقلابه إلى موضوع آخر كصيرورة الخمر خلاً والنجس تراباً، وهذا غير مراد في المقام قطعاً. وأخرى صدق الموضوع على مورد في زمان ومكان، وعدم صدقه على ذلك المورد في زمان ومكان آخر، وما هذا إلا لمدخلية الظروف والملابسات فيها.

ويظهر ذلك بالتأمل في الموضوعات التالية:

١ـ في صدق المثلي والقيمي، فقد جعل الفقهاء ضوابط للمثلي والقيمي، ففي ظلها عدّوا الحبوب من قبيل المثليات، والأواني والألبسة من قبيل القيميات، وذلك لكثرة وجود المماثل في الأولى وندرته في الثانية، وكان ذلك الحكم سائداً حتى تطورت الصناعة تطوراً ملحوظاً، فأصبحت تنتج كميات هائلة من الأواني والمنسوجات لا تختلف واحدة عن الأخرى قيد شعرة، فأصبحت القيميات بفضل الازدهار الصناعي مثليات.

٢ـ في صدق المكيل والموزون على شيء حيث إن الحكم الشرعي هو بيع المكيل بالكيل، والموزون بالوزن، لا بالعد، ولكن هذا يختلف حسب اختلاف البيئات والمجتمعات، ويلحق بكل حكمه.

الثاني: تأثيرهما في ملاكات الأحكام:

لا شك أن الأحكام الشرعية تابعة للملاكات والمصالح والمفاسد، فربما يكون مناط الحكم مجهولاً ومبهماً، وأخرى يكون معلوماً بتصريح من الشارع. والقسم الأول خارج عن محل البحث، وأما القسم الثاني فالحكم دائر مدار مناطه

وملاكه. فلو كان المناط باقياً فالحكم ثابت، وأما إذا تغير المناط حسب الظروف والملابسات يتغير الحكم قطعاً، مثلاً:

١ـ لا خلاف في حرمة بيع الدم بملاك عدم وجود منفعة محللة فيه، ولم يزل حكم الدم كذلك حتى اكتشف العلم له منفعة محللة تقوم عليها رحى الحياة، وأصبح التبرع بالدم إلى المرضى كإهداء الحياة لهم، وبذلك جاز الدم على ملاك آخر فحلَّ بيعه وشراؤه.

٢ـ إن قطع أعضاء الميت أمر محرم في الإسلام، قال رسول اللَّه ﷺ: « **إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور** »[٥]. ومن الواضح أن ملاك التحريم هو قطع الأعضاء لغاية الانتقام والتشفي، ولم يكن يومذاك أي فائدة تترتّب على قطع أعضاء الميت سوى تلبية للرغبة النفسية ـ الانتقام ـ ولكن اليوم ظهرت فوائد جمة من وراء قطع أعضاء الميت، حيث صارت عملية زرع الأعضاء أمراً ضرورياً يستفاد منها لنجاة حياة المشرفين على الموت.

الثالث: تأثيرهما في كيفية تنفيذ الحكم:

اتفق الفقهاء على أن الغنائم الحربية تقسَّم بين المقاتلين على نسق خاص بعد إخراج خمسها لأصحابها،

لكن الغنائم الحربية في عصر صدور الروايات كانت تدور بين السيف والرمح والسهم والفرس وغير ذلك، ومن المعلوم أن تقسيمها بين المقاتلين كان أمراً ميسراً آنذاك. أما اليوم وفي ظل التقدم العلمي الهائل، فقد أصبحت الغنائم الحربية تدور حول الدبابات والمدرّعات والحافلات والطائرات المقاتلة والبوارج الحربية، ومن الواضح عدم إمكان تقسيمها بين المقاتلين بل هو أ مر متعسر، فعلى الفقيه أن يتخذ أسلوباً في كيفية تطبيق الحكم على صعيد العمل ليجمع فيه بين العمل بأصل الحكم والابتعاد عن المضاعفات الناجمة عنها.

الرابع: تأثيرهما في منح نظرة جديدة نحو المسائل:

إن تغير الأوضاع والأحوال الزمنية يضفي للمجتهد نظرة جديدة نحو المسائل المطروحة في الفقه قديماً وحديثاً. فقد كان القدماء ينظرون إلى البيع بمنظار ضيق ويفسرونه بنقل الأعيان وانتقالها، ولا يجيزون على ضوئها بيع المنافع والحقوق، غير أن تطور الحياة وظهور حقوق جديدة في المجتمع الإنساني ورواج بيعها وشرائها، حدا بالفقهاء إلى إعادة النظر في حقيقة البيع، فجوّزوا بيع الامتيازات والحقوق العامة.

الخامس: تأثيرهما في تعيين الأساليب:

إن هناك أحكاماً شرعية لم يحدد الشارع أساليبها بل تركها مطلقة كي يختار منها في كل زمان ما هو أصلح في التنظيم نتاجاً وأنجع في التقويم علاجاً، وإليك بعض الأمثلة على ذلك:

١ـ الدفاع عن بيضة الإسلام قانون ثابت لا يتغير ولكن الأساليب المتخذة لتنفيذ هذا القانون موكولة إلى مقتضيات الزمان التي تتغير بتغيره، ولكن في إطار القوانين العامة فليس هناك في الإسلام أصل ثابت إلا أمر واحد وهو قوله سبحانه: ﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾[٦] وأما غيرها فكلها أساليب لهذا القانون تتغير حسب تغير الزمان.

٢ـ نشر العلم والثقافة أصل ثابت في الإسلام، وأما تحقيق ذلك وتعيين كيفيته فهو موكول إلى الزمان، فعنصر الزمان دخيل في تطبيق الأصل الكلي حسب مقتضيات الزمان.

٣ـ التشبه بالكفار أمر مرغوب عنه حتى أن الرسول ﷺ أمر بخضب الشيب وقال: « **غيّروا الشيب ولا تَشَبَّهُوا باليهود** » والأصل الثابت هو صيانة المسلمين عن التشبّه

بالكافرين، ولما اتسعت دائرة الإسلام واعتنقته شعوب مختلفة وكثر فيهم الشيب تغير الأسلوب، ولما سُئل علي عليه السلام عن ذلك، فقال: « **إنما قال صلى الله عليه وآله وسلم ذلك والدين قُلٌّ، فأما الآن وقد اتسع نِطاقُهُ وضرب بِجرَانِهِ فامرؤ وما اختار** » [٧].

هذا كله في تأثيرهما في الاجتهاد واستنباط الأحكام الأولية، أما تأثيرهما في الأحكام الحكومية فله مبحث آخر[٨].

إن متابعة الفقيه المستمرة لمتغيرات الزمان والمكان يساهم بدور فعّال ومهم في تشكيل ذهنية الفقيه، وهذا بدوره ينعكس على استنباط الفقيه لقضايا العصر، ومستجدات الحوادث الواقعة.

وقد كان الإمام الشيرازي قدس سره ملماً إلماماً واسعاً بمتغيرات الزمان والمكان. وأكبر دليل على ذلك موسوعته الفقهية التي اشتملت على الكثير من (الحوادث الواقعة). وبعبارة أخرى: لقد عالج الإمام الشيرازي في موسوعته الفقهية قضايا العصر، ومستجدات المسائل الحديثة. كما عالج في كتبه ومؤلفاته الكثيرة العديد من القضايا المعاصرة مما يعكس إلمام الإمام الشيرازي بمتغيرات الزمان والمكان للعصر الذي عاش فيه، وتفاعل معه، ونَظَّر من أجل حلّ مشاكله وقضاياه.

٣- مواكبة متغيرات العصر:

تشهد حياتنا المعاصرة قفزات نوعية في مختلف العلوم والمعارف، مما أوجد العديد من المتغيرات في حياتنا، وطريقة تفكيرنا، ونوعية سلوكياتنا. كما أن ثقافتنا العامة قد دخل عليها العديد من التغيرات والتبدلات نتيجة للتطور الثقافي والعلمي، وارتفاع مستوى الوعي المجتمعي.. مما وَلَّدَ الكثير من الإشكاليات الجديدة، والتساؤلات الشائكة والتي تحتاج إلى أجوبة واضحة من قبل المراجع والفقهاء وأهل العلم والرأي.

ولكي يواكب فكرنا وثقافتنا وفقهنا متغيرات العصر وتطوراته، ويُجيب على أسئلة العصر وقضاياه لابد من التجديد في ثقافتنا وفكرنا، والاجتهاد في القضايا المعاصرة؛ وإلا فإن الزمن سيتجاوز من يعيش خارج عصره، ولن ينتظر من يغرق في قضايا الماضي ومشكلاته.

ولذلك يدعو الإمام الشيرازي إلى ضرورة تجديد التطبيق للسنة على عصرنا نظراً لتغير القضايا والموضوعات من عصر إلى آخر إذ يقول ما نصه: « إن كليات السنة وملاكاتها قابلة الانطباق على كل مصر وعصر، وذلك ما فعله فقهاؤنا في عصورهم السابقة، فمثلاً شيخ الطائفة طبق عصره على السنة، والعلامة في القواعد فعل ذلك، وهكذا

الأمر حتى إلى صاحب الجواهر. ولكن حيث تغير العصر في هذا القرن احتاج الأمر إلى تجديد التطبيق » [٩].

ومن جهة أخرى يرى الإمام الشيرازي ببصيرته النافذة أن الإسلام قادر على مواكبة التطور، وأنه يجب العمل على ترفيع مستوى المسلمين ليواكبوا التطور والتقدم حيث يقول قدس سره:

« ١ـ إن الحياة متطورة صاعدة، والسبب أن الأسرار المودعة في الطبيعة كمية هائلة، والعقول بطاقتها التي خزنها اللّه فيها، تكتشف في كل زمان، عدة من تلك الأسرار الموجبة للرقي والتقدم، ورغد الحياة، كاكتشاف حجر النار ثم الذرة، ثم اختزان أشعة الشمس نهاراً لتعكيسها ليلاً.

٢ـ الإسلام فيه قوانين كلية قابلة الانطباق على الحياة المتطورة، انطباقاً يوجب تحسين استغلال ذلك التطور، وجعله في صالح البشر.

٣ـ المبادئ والقوانين الأرضية عاجزة عن تحديد التطور، تحديداً يلائم البشر، ويصلح شؤونه، وعند هذا يظهر دور الفقهاء المراجع في تحسين التطور، وجعله بحيث يجمع بين الحسنيين: حسنى الإسلام، وحسنى التطور » [١٠].

ومن أجل أن نستثمر التطور الحاصل في العالم، وأن

نواكب متغيرات العصر يجب أن نجدد فكرنا، وأن نركز على الجوهر بدلاً من التركيز على القشور، وأن نرتب أولوياتنا وفقاً لمتغيرات العصر، وأن نعمل على تأصيل القضايا المعاصرة، وأن نجتهد في مستجدات العصر... وبذلك نستطيع أن نتفاعل مع عصرنا، وأن نواكب متغيراته، وأن نجيب على أسئلته، وأن نكون الأعلم بقضايا عصرنا، والأعرف بقضايا مجتمعنا وأمتنا.

وقد كان الإمام الشيرازي مثالاً بارزاً للفقيه المجتهد المطلع على قضايا عصره، والمتابع لأخباره وتطوراته، فقد كان الإمام الشيرازي يستمع كل يوم إلى الأخبار، ويتابع الأحداث بدقة، ويسأل كل من يزوره عن أوضاع بلاده مع العلم أنه كان أكثر اطلاعاً ـ في كثير من الأوقات ـ من المسؤول!

لقد عاش الإمام الشيرازي متفاعلاً مع قضايا عصره، ومنظراً حاذقاً لمشكلات زمانه، وموجهاً قديراً لحل قضايا أمته... إنه نموذج متميز لما يجب أن يكون عليه الفقيه المجتهد. وهذا ما يجب أن يكون عليه كل فقيه مجتهد كي يتمكن من إدارة المجتمع وقيادة الأمة، ويمتلك القدرة على التعاطي مع قضايا العصر ومستجداته.

التجديد في الفقه

ضرورة التجديد في الفقه تأتي من ضرورة مواكبة متغيرات العصر، وملاحقة تطوراته ومستجداته، وتحديد الرأي الشرعي تجاه كل حدث من الحوادث الواقعة.

وتنبع أهمية وجود المجتهد المطلق من قدرته على الإجابة على أسئلة العصر، والإبداع في معالجة القضايا الجديدة، وليس فقط ممارسة الاجتهاد في المسائل العبادية للفرد المسلم. إذ أن المطلوب من المجتهد في كل عصر هو معالجة قضايا عصره، والإجابة على أسئلة زمانه، وعدم الاقتصار على ما سبق للفقهاء المتقدمين أن أجابوا عليه؛ وإلا فإن الاجتهاد يفقد حيويته وقدرته على مواكبة المتغيرات الزمانية والمكانية.

ولا يمكن للتراث الفقهي ـرغم ضخامته وأهميتهـ أن

يجيب على كل تساؤلات العصر، بل المطلوب من المجتهد المعاصر ممارسة الاجتهاد، في القضايا الجديدة كما القديمة، لأن الاجتهاد يجب أن يشمل جميع جوانب الحياة.

أما المراوحة عند القضايا والمسائل التي أشبعت بحثاً واستدلالاً فقد يكون ذلك ضرورياً لبناء ملكة الاجتهاد، وممارسة المران والتدريب على الاجتهاد، ولكن لا يصح أن يظل المجتهد طوال عمره كذلك، بل يجب إعمال الرأي والنظر في كل القضايا والمسائل وخصوصاً المسائل الجديدة والمستجدة.

ويعتقد العلامة الشيخ (محمد جواد مغنية) أن الوعي بالعصر شيء أساسي لمجتهد اليوم، إذ كتب ﷺ ما نصه: «كل شيء فينا وحولنا يتحرك ويتغير، أردنا ذلك أم لم نرد، ثرنا أم استسلمنا، وعلى كل فرد أن يتحمل مسؤولية هذه الحياة المتطورة المتغيرة حسب ظروفه وكفاءته، وإذا كانت القدرة على استخراج الحكم من الأدلة الأربعة كافية وافية في مجتهد الأمس حيث كانت الحياة على وفاق ووئام مع الشرع الإسلامي وأحكامه ونصوصه، فإن مجتهد اليوم يجب ـ بالإضافة إلى هذا الشرط ـ أن يتوفر له الوعي الديني المستنير المنفتح، والوعي الزمني لمجرى الحوادث وحقائق الحياة

من حوله، وأن يتخلى عن الوهم أن الإسلام قادر على مقاومة كل تهديد لمجرد ما فيه من مزايا وخصائص. وأن يكون ذا فكر مبدع وخلاق، وأن يتحرر من القيود والتقاليد التي لا يفرضها عقل ولا دين لكي يستطيع أن يوائم بين النصوص ومقتضيات العصر، وأن يقتبس من القوانين الحديثة ما يخدم الحياة، وتسمح به شريعة الإسلام السهلة السمحة، التي تروي بمعينها الفياض كل أرض في كل مجتمع لولا الحواجز والعقبات.

وبعد، فإن المجتهد المطلق حقاً وواقعاً في عصرنا هو الذي يخلق ويبدع على أساس المصلحة في حدود المبادئ العامة، أما « الظاهري » المغلق على عقله ودنياه فيستحيل الاجتهاد في حقه، حتى ولو حفظ آيات الأحكام وأحاديثها والمتون وشروحها »[11].

وفي مقطع آخر من كلامه يوضح المطلوب من فقهاء العصر بقوله: « أن يعالج فقهاؤنا مشكلة الإنسان في عصره، كعلاقة العامل برب العمل، والمستأجر بالمؤجر، والمدين بالدائن، وسطو اللصوص على جهود المؤلف والمخترع، وما إلى ذلك من علاقة الفرد بمجتمعه، والأحداث اليومية التي تضغط على حياته وتفكيره وانفعاله، أن يعالج الفقهاء

المعاصرون المشكلات المستحدثة التي تعم بها البلوى في ضوء القوانين الحديثة التي تُطبق وتُنفذ بقوة السلاح، وعلى أساس الرؤية السليمة لشريعة الإسلام ونصوصه، وأن يهيلوا التراب على كل قضية تحدَّث عنها الأقدمون ما دامت لا تمس حياتنا بسبب »[١٢].

كما أن الشهيد (مرتضى مطهري) يرى أيضاً أن مسؤولية فقهاء العصر الإجابة على المسائل الجديدة ومعالجة القضايا المستجدة. إذ يقول: « ليس صحيحاً أن جميع المشاكل قد حلّها العلماء، ولم تعد لدينا مشكلة ما. إننا نجد آلاف الألغاز والمشاكل في الكلام والتفسير والفقه وسائر العلوم الإسلامية، مما قام العلماء العظام السابقون بحل الكثير منها، ولكن بقي منها الكثير الذي يتطلب الحل، وإنه لمن واجب العلماء اللاحقين أن يحلوا تلك المشاكل، ويكتبوا فيها كتباً أفضل وأشمل، فيديموا تلك العلوم ويتقدموا بها، بمثلما أمكن في الماضي التقدم بالتفسير إلى الأمام، وكذلك بعلم الكلام، وبالفقه. على هذه القافلة ألاَّ تتوقف عن المسير. إذن تقليد الناس المجتهدين الأحياء والتوجه إليهم وسيلة من وسائل إدامة العلوم الإسلامية وتكاملها.

إن المسلمين يواجهون كل يوم مسائل جديدة في الحياة

لا يعرفون موقفهم منها، وهذا يتطلب فقهاء أحياء وذوي أفكار حية حتى يجيبوا على هذه المسائل. ورد في أحد أخبار الاجتهاد والتقليد: « **وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة أحاديثنا** » والحوادث الواقعة هي ما يجد من جديد في مدى الزمن سنين وقروناً. إن دراسة الكتب الفقهية وتتبعها خلال قرون مختلفة يكشف عن أن الكثير من احتياجات الناس المستحدثة أدخلت مسائل جديدة في الفقه، وقام الفقهاء بوضع الحلول لها، وهكذا ازداد حجم الفقه تدريجياً.

إن البحث الزمني الدقيق يمكن أن يكشف عن المسائل الجديدة، وتاريخ دخولها الفقه، وسبب دخولها، والحاجة التي استدعتها، فإذا لم يجب المجتهد الحي على هذه المسائل الجديدة، فلا فرق بين تقليد الحي والميت، بل قد يفضل بعض الأموات على بعض الأحياء، كالشيخ الأنصاري ـ مثلاً ـ والذي يعترف بأعلميته كثير من الأحياء.

ثم إن معنى (الاجتهاد) نفسه يصح في تطبيق السنن الكلية على الجديد من الحوادث المتغيرة، فالمجتهد الحقيقي هو الذي أدرك هذا المعنى، وعرف كيف أن المواضيع تتغير مما يستتبع تغير أحكامها. أما مجرد إعمال النظر في القديم، الذي سبق للآخرين أن أعملوا فيه نظرهم، ومن ثم تبديل

فتوى من « على الأقوى » إلى « على الأحوط » أو العكس، لا يكون أمراً يستحق كل هذا الصخب والجدل »[١٣].

وقد اتسع نطاق الفقه وتشعبت بحوثه بفضل الفقهاء المتميزين في كل عصر ممن أدركوا ضرورة الإجابة على القضايا والمسائل الجديدة فقد « مضى حينٌ كان الفقه فيه محدوداً جداً، عندما نراجع الكتب الفقهية السابقة على الشيخ الطوسي نجدها صغيرة ومختصرة، إلا أنَّ الشيخ الطوسي بكتابه « المبسوط » أدخل الفقه في مرحلة جديدة متسعة، ومن ثم بتوالي الأدوار والأزمان، وبمساعي العلماء والفقهاء، اتسعت المسائل والتحقيقات الجديدة، وازداد حجم الفقه، بحيث إن « صاحب الجواهر » وقبل مائة سنة تقريباً، لم يكتب كتابه الفقهي ذاك إلا بعناء كبير. يقال إنَّه شرع فيه وهو ابن العشرين، وبما عُرِف عنه من الأهلية والاستمرار في العمل، استطاع أن يكمل الكتاب في أواخر عمره الطويل، ويقع كتابه في ستة مجلدات ضخمة مطبوعة. إن المبسوط للشيخ الطوسي، والذي يجمع بين دفتيه خلاصة الفقه في عصره لا يبلغ في حجمه نصف مجلد من مجلدات « صاحب الجواهر » الستة. وبعد هذا جاء الشيخ مرتضى الأنصاري (أعلى اللَّه مقامه) بمبانٍ جديدة في الفقه، تجد

نموذجاً لها في كتابيه (المكاسب) و (الطهارة) »[١٤].

وفي كل عصر يبرز من الفقهاء من يتميز بالنبوغ والعبقرية والذكاء الخارق ممن يكون لديهم القدرة على التجديد في الفقه وأصوله، ومعالجة القضايا المستجدة والمسائل الحديثة بأسلوب استدلالي معمق؛ وهذا ما يعطي للفقهاء القدرة على مواكبة (الحوادث الواقعة)، وتطوير أبواب الفقه، واستحداث أبواب جديدة تفرضها طبيعة متغيرات العصر وتطوراته.

وقد كان الإمام الشيرازي من أبرز من لمع في هذا المجال في العقود الأخيرة من القرن العشرين؛ حيث تعتبر موسوعته الفقهية سيدة الموسوعات على الإطلاق. إذ لا توجد موسوعة فقهية ـحسب اطلاعيـ لحد الآن قد وصلت من حيث الحجم أو من حيث البحوث الجديدة أو التفريعات الكثيرة كما هو عليه الحال في موسوعة الإمام الشيرازي الفقهية.

وقد وصلت الموسوعة الفقهية للإمام الشيرازي إلى ١٥٠ مجلداً من المجلدات الكبيرة. وقد تميزت هذه الموسوعة الفقهية بالعديد من الميزات التي تميزها عن غيرها من الموسوعات الفقهية.. من أبرزها ما يلي:

١- استعراض الأدلة:

يستعرض الإمام الشيرازي جميع الأدلة النقلية والعقلية على كل مسالة، وآراء الفقهاء من المتقدمين والمتأخرين، ودليل كل مجموعة ثم يجيب على كل الإشكالات ليعطي في النهاية رأيه الاستدلالي للمسألة المطروحة للبحث. وبالرغم من أن هذه الطريقة متبعة في الكتب الفقهية الاستدلالية إلا أن ما يميز الموسوعة الفقهية للإمام الشيرازي هو العدد الهائل من الأدلة التي يستعرضها. كما يستعرض عدداً كبيراً جداً من آراء الفقهاء من المتقدمين والمتأخرين مما يعطي الباحث رؤية شاملة للمسألة التي يبحث فيها.

٢- كثرة التفريعات:

يُلاحِظ القارئ للموسوعة الفقهية كثرة التفريعات التي يتعرض لها الإمام الشيرازي، وبعضها تفريعات جديدة وافتراضات حديثة فرضتها متغيرات العصر ومستجداته، ويُعطي في كل تفريع ومسألة رأيه الاستدلالي الفقهي. وهذه التفريعات لم تقتصر على الأبواب الجديدة التي استحدثها، بل نجدها حتى في أحكام العبادات فضلاً عن أحكام المعاملات.. وهذا ما يعطي للموسوعة الفقهية للإمام

الشيرازي ميزة مهمة أخرى تمييزها عن غيرها من الموسوعات الفقهية.

٣- استحداث أبواب جديدة:

لم يقتصر الإمام الشيرازي في موسوعته الفقهية على الأبواب المتعارف عليها في الفقه والتي تبدأ من باب (الاجتهاد والتقليد) إلى باب (الديات) بل أضاف إلى ذلك العديد من الأبواب الجديدة. والتي يتجلى فيها إبداعه الفقهي، وعقليته المبتكرة، وذهنيته الوقادة، وعلمه الواسع.

وقد كتب الإمام الشيرازي في الموسوعة الفقهية التي ألَّفها الأبواب الجديدة التالية:

١- الفقه: كتاب الحكم في الإسلام.
٢- الفقه: كتاب الدولة الإسلامية (مجلدين).
٣- الفقه: كتاب الإدارة (مجلدين).
٤- الفقه: كتاب السياسة (مجلدين).
٥- الفقه: كتاب الاقتصاد (مجلدين).
٦- الفقه: كتاب الاجتماع (مجلدين).
٧- الفقه: كتاب السلام.
٨- الفقه: كتاب البيئة.

٩- الفقه: كتاب الحقوق.
١٠- الفقه: كتاب العقائد.
١١- الفقه: كتاب الإعلام.
١٢- الفقه: كتاب علم النفس.
١٣- الفقه: كتاب حول العقل.
١٤- الفقه: كتاب حول السنة المطهرة.
١٥- الفقه: كتاب الحكومة العالمية الواحدة.
١٦- الفقه: كتاب النظافة.
١٧- الفقه: كتاب المرور.
١٨- الفقه: كتاب الطب.
١٩- الفقه: كتاب الحريات.
٢٠- الفقه: كتاب القانون.
٢١- الفقه: كتاب المستقبل.
٢٢- الفقه: كتاب الأسرة.
٢٣- الفقه: كتاب المسائل المتجددة.
٢٤- الفقه: كتاب الأسئلة والأجوبة.
٢٥- الفقه: كتاب فلسفة التاريخ.
٢٦- الفقه: كتاب طريق النجاة.
٢٧- الفقه: كتاب العولمة.. وهو من آخر الكتب التي ألفها الإمام الراحل قدس سره.

وتكشف هذه الأبواب الجديدة التي بلورها أو استحدثها الإمام الشيرازي في علم الفقه عن قدرته على الإبداع، وغزارة علمه، وشمولية فكره، وفهم زمانه، ومعايشة عصره بوعي وبصيرة.

وقد كان من السمات العلمية في شخصية المرجع الراحل هو خياله العلمي الواسع، وامتلاكه لأفكار خلاّقة ومبدعة. فقد كان الإمام الشيرازي صاحب خيال علمي خلاَّق، وقد أنتج هذا الخيال الكثير من الأفكار والآراء سواء فيما يرتبط بالحقل الشرعي أو الحقول الأخرى.

ويُعد كتابه (ألف مسألة متجددة) أكبر دليل على خياله العلمي الواسع ومتابعته الدقيقة لآخر نظريات الخيال العلمي؛ حيث تحدث في هذا الكتاب القيم عن مسائل علمية لم يكن العلم الحديث قد تَوَصَّل إليها في ذلك الوقت، بَيْدَ أنه كتب هذا الكتاب في كربلاء مما كان مدعاة للاستغراب من البعض، ومثاراً للسخرية من البعض الآخر! ولكن الكثير مما تحدث عنه قد أصبح واقعاً الآن؛ كمسألة زرع القلب في الإنسان، ومسألة زرع الرأس في الإنسان؛ حيث توصل الطب الحديث إلى زراعته في الحيوان وربما يصل في المستقبل القريب إلى زراعته في الإنسان أيضاً.

ومثل مسألة الاستنساخ البشري، ومثل مسألة: لو خرج مخلوق نصفه إنسان ونصفه حيوان، وقد تحدثت الصحف قبل فترة يسيرة من الزمن عن تحقق ذلك. ومثل مسألة الوصول إلى القمر، والصلاة والصيام هناك حيث كان يرى البعض استحالة ذلك!!

لقد واكب الإمام الشيرازي قضايا العصر، ومشكلات الحاضر، وتحديات المستقبل؛ وهذا ما جعله يعالج في موسوعته الفقهية حتى القضايا الافتراضية في جميع أبواب الفقه، والتي تحول بعضها من مجرد افتراضات إلى حقائق علمية.

وهذا يدل على عناية واهتمام الإمام الشيرازي بالفقه عناية كبيرة وفائقة؛ فانصرف من بداية حياته في كربلاء المقدسة إلى كتابة (الموسوعة الفقهية) ومروراً بالكويت وانتهاءً بقم المقدسة. حيث كان (قدس سره الشريف) يكتب ويسجل ويدون كل ما يرتبط بالفقه، وفي نهاية عمره الشريف تمكَّن من إصدار أكبر موسوعة فقهية لحد الآن. وفي حين عجزت بعض الدول عن إصدار موسوعة فقهية كبيرة وكاملة ـ رغم إمكانيات الدول التي لا تقاس بإمكانيات الأفراد مهما كانت كبيرة ـ وفي الوقت الذي كان يفترض فيه أن تصدر (موسوعة جمال عبدالناصر الفقهية) في خمس مائة

مجلد إلا أنه لم يصدر منها ـ لحد الآن ـ سوى ٢٢ مجلداً فقط! ولا نعلم إن كانت ستصدر المجلدات الأخرى أم لا؟! علماً بأن الموسوعة قد صدرت عام ١٣٨١هـ. أما (الموسوعة الفقهية) التي صدرت من الكويت عام ١٣٨٦هـ فلم يتجاوز عدد مجلداتها ـ لحد الآن ـ ٣٨ مجلداً. أما الإمام الشيرازي فقد استطاع ـ بعلو همته وقوة إرادته ومثابرته وصبره ـ أن ينجز موسوعة فقهية كاملة ومتميزة؛ فلم يقتصر على أبواب الفقه المعروفة وإنما تجاوز ذلك إلى استحداث أبواب جديدة ،ومعالجة القضايا الحديثة، والإجابة على الأسئلة المعاصرة؛ بل وافتراض الكثير من الافتراضات التي يمكن في يوم من الأيام ـ خصوصاً مع زيادة وتيرة التقدم العلمي ـ أن تتحقق. وبذلك استطاع الإمام الشيرازي أن يسد نقصاً كبيراً في المكتبة الفقهية. ففي حين كان يعتبر كتاب (جواهر الكلام) أكبر موسوعة فقهية عند الشيعة، فإنه يبدو صغيراً أمام موسوعة فقهية يصل عدد مجلداتها إلى ١٥٠ مجلداً.

إن الموسوعة الفقهية للإمام الشيرازي تعتبر بحق أكبر قفزة نوعية في علم الفقه في القرن العشرين. وأعتقد جازماً أن الاهتمام بالموسوعة الفقهية سيزداد مع مرور الأيام والسنين؛ إذ عادة ما يُهتمَّ ـ في عالمنا الإسلامي ـ بتراث أي

فقيه أو عالم أو مفكر بعد مماته أكثر بكثير منه في حياته!!

إن الإمام الشيرازي (رضوان اللّه عليه) بهذه الموسوعة الفقهية الشاملة قد قدَّم للأمة الإسلامية نموذجاً متميزاً لما يجب أن يكون عليه المجتهد في هذا العصر.

وستبقى هذه الموسوعة الفقهية أكبر شاهد على سعة علم الإمام الشيرازي، وقدرته على الإبداع والابتكار، وعبقريته الفذة، وفكره الخلاّق، وتجديده المتميز، ووعيه بقضايا العصر.

هوامش الفصل الأول

(١) الفقه، كتاب: الاجتهاد والتقليد، السيد محمد الحسيني الشيرازي، دار العلوم، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م، ج١، ص٢٩.

(٢) المرجع والأمة، السيد محمد الشيرازي، مؤسسة البلاغ، بيروت ـ لبنان، غير مذكور عدد الطبعة ولا تاريخ الطبع، ص٣٠.

(٣) الشباب هموم الحاضر وتطلعات المستقبل، عبداللّه أحمد اليوسف، مؤسسة البلاغ، بيروت ـ لنبان، الطبعة الثانية ١٤٢٣ ـ ٢٠٠٢م، ص١٦٥.

(٤) ما هو الإسلام، السيد محمد الشيرازي، مؤسسة الفكر الإسلامي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م، ص١١.

(٥) نهج البلاغة، السيد الشريف الرضي، دار البلاغة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الرابعة ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م، ص٥٩٩، قسم الرسائل رقم ٤٧.

(٦) سورة الأنفال: ٦٠.

(٧) نهج البلاغة، مصدر سابق، ص٦٦٥، قسم الحِكَم برقم ١٦.

(٨) لمزيد من الاطلاع انظر كتاب (مصادر الفقه الإسلامي ومنابعه)، الشيخ جعفر السبحاني، دار الأضواء، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م، ص٣٢٢.

(٩) الفقه: حول السنة المطهرة، السيد محمد الشيرازي، دار العلوم،

بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م، ص٤٤.

(١٠) المرجع والأمة، مصدر سابق، ص٢١.

(١١) الإسلام بنظرة عصرية، محمد جواد مغنية، دار الجواد، بيروت ـ لبنان، الطبعة الرابعة ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م، ص١٠٣.

(١٢) الإسلام بنظرة عصرية، مصدر سابق، ص١٠٢.

(١٣) محاضرات في الدين والاجتماع، مرتضى المطهري، الدار الإسلامية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م، ص٥٣٢.

(١٤) نفس المصدر السابق، ص٥٣٧.

مسألة التجديد في الأفكار

التجديد في الأفكار

نعيش في الألفية الثالثة في ظل عالم تتلاطم فيه الأفكار والثقافات، وتتزاحم فيه المنظومات والأنساق الفكرية والثقافية المتباينة. وكل تلك الأفكار مُوجَّهة ـرغم اختلافهاـ إلى استقطاب الناس، والتأثير في سلوكياتهم وأخلاقياتهم، وتغيير قناعاتهم باتجاه قناعات جديدة.

والأفكار الحية والقوية هي الأقدر على التأثير والتغيير في سلوكيات الناس، والفكر الإسلامي بما يحمل من خصائص وميزات تجعله الأقدر والأقوى على التأثير في الناس، وتوجيه سلوكياتهم، ورسم فلسفتهم تجاه الكون والحياة.. ولكن بشرط واحد وهو أن نقدم الفكر الإسلامي بما يتلاءم مع لغة العصر، ومنطق الزمان، وفهم المكان.

والأفكار لكي تكون فعّالة ومؤثرة يجب أن تخضع

للتجديد، فالأفكار الحيَّة هي الأفكار المتجددة والجديدة والقادرة على التعامل مع المتغيرات، ومع الواقع، كما أن الزمان والمكان لهما تأثير قوي على صناعة الأفكار عند البشر.

وتزداد الحاجة إلى ضرورة التجديد في الأفكار عندما ندرك مستوى التطور الحضاري (المادي) الذي يشهده الغرب الآن، وما يشعر به المسلمون من الفارق الكبير بينهم وبين الغرب على المستوى العلمي والتقني والتكنولوجي.. وما يفرضه ذلك من تحديات حضارية كبرى. وفي حين يعيش العالم الإسلامي في مستنقع التخلف والجهل فإن الغرب يعيش في أوج قوته وازدهاره الحضاري. وبينما كان المسلمون قبل قرون يعيشون في أوج حضارتهم الشامخة كان الغرب يعيش في ظلام دامس، وتخلف حضاري مريع! وهو ما يستدعي من الفقهاء والعلماء وأهل الفكر والرأي القيام بمراجعات نقدية لدراسة أسباب الانتكاسة والتقهقر الحضاري الذي مُنِي به المسلمون منذ زمن وإلى الوقت الحالي.

والآن حيث يشعر المسلمون بمرارة التخلف والانحطاط الحضاري فإن هَمَّ التجديد لاستنهاض الأمة الإسلامية

واستعادة حضارتها يُشغل رُوَّاد الإصلاح والتجديد في عالمنا الإسلامي.

ومن أبرز هؤلاء الرُّوَّاد كان الإمام الشيرازي قدس سره الذي حمل على عاتقه راية الإصلاح والتجديد لكي يستنهض الأمة الإسلامية من سباتها العميق، ويبعث فيها روح النهضة والإحياء من أجل بناء الحضارة الإسلامية من جديد.

وقد مارس الإمام الشيرازي في كتبه ومحاضراته نقداً للواقع المزري الذي يعيشه المسلمون نتيجة لابتعادهم عن أخلاق وقيم الإسلام.. هذا من جانب؛ ومن جانب آخر كان يدعو دائماً للعمل بالإسلام، والأخذ بالأسباب الطبيعية من أجل استعادة حضارة الإسلام التي كانت في يوم من الأيام مبعث النور والعلم والتقدم والازدهار في العالم.

وقد كان الإمام الشيرازي رائد مشروع فكري متميز، ومؤسس لمدرسة فكرية مستنيرة. وقد أنتج سماحته العديد من الأفكار الجديدة أو المتجددة أو الأفكار التجديدية التي تستهدف في نهاية المطاف إقامة الدولة الإسلامية العالمية الواحدة، ومن ثم بناء الحضارة الإسلامية الشامخة.

إن ما يميز الإمام الشيرازي ـ شأنه في ذلك شأن سائر

المصلحين والمجددين- أنه كان يحمل هموم الأمة بقوة، ويسعى من أجل استنهاضها وإحياء حضارتها. وكان همه الأكبر استعادة الإسلام إلى الحياة، وتوحيد الأمة الإسلامية في كيان واحد... ومن أجل تحقيق ذلك الهدف قَدَّم للأمة منظومة فكرية متكاملة.

وعندما تقرأ أفكار الإمام الشيرازي ترى شدة تمسكه بالأصالة حتى لتظن للوهلة الأولى أنه أبعد ما يكون من المعاصرة والحداثة؛ ولكن عندما تتمعن في أفكاره بصورة أكثر عمقاً ترى أنه مع تمسكه الشديد بالأصالة إلا أنه مدرك لقضايا العصر ومشكلاته لدرجة تشعر أنه مشغول بإصلاح هذا العالم - كل العالم- وتغيير واقعه نحو الأفضل والأحسن والأكمل.

أهم الأفكار:

لقد شغل فكر الشيرازي منذ نصف قرن مسألة التخلف العميق في الأمة. وكان همه الأساسي: كيف يمكن إنهاض المسلمين؟ ولقد استخلص من جميع ما قرأ من نهضات الأمم، ومما جرَّب شخصياً في شتى الظروف إن الحرية أساس التقدم في الأمم، وإن الدكتاتورية والاستبداد سر البلاء المبرم.. ولهذا السبب فإن الشيرازي دافع عن

الحرية بأوسع معانيها، وحارب الديكتاتورية بشتى أشكالها، وتبريراتها، وتفريعاتها.

حتى نظريته ـ في شورى المراجع ـ كانت تنبع من هذا الأصل الأساسي والذي كان يستند فيها إلى جملة كبيرة من النصوص الدينية، وإلى العقل والمنطق، وتجارب الأمم.

ثم إنه كان يركز ـ في جميع كتبه ومؤلفاته ـ حول (الأمة الإسلامية الواحدة) وكان يرى أن الظلم والعدوان الداخلي الناشئ من النعرات القومية والإقليمية كان دائماً أشد من الظلم والعدوان الخارجي، وأن لا خلاص للمسلمين إلا بالعودة إلى حصن الأمة الواحدة التي بناها رسول اللَّه ﷺ وإلغاء الفوارق القومية واللغويّة.. إلخ. معتبراً أنّ ذلك ليس فقط سبباً للضعف الدنيوي بل وموجباً للسخط الإلهي.

ولهذا السبب ركَّز الإمام الشيرازي على ضرورة بعث الأخوة الإسلامية في روح الأمة ووجدانها، وفي سن الدساتير والأنظمة والقوانين على أساسها. وإلغاء الحدود، والهويَّات، والجنسيات، والجوازات الخاصة بكل قبيلة وفئة وطائفة؛ وكان يقول: ماذا يعني أنّ جبلاً واحداً أو سهلاً واحداً يعيش من فوقه جمع من البشر يحمل كل جزء منهم جوازاً خاصاً وكلهم مسلمون؟!

على ضوء تلك المنطلقات بنى الإمام الشيرازي نظريته في (شورى الفقهاء المراجع) و (التعددية الحزبية في ظل النظام الإسلامي) و (الاقتصاد الحر) و (الدعوة السلمية إلى الإسلام) و (اللا عنف)... إلخ.

تلك مجموعة فكرية متكاملة تستند على رؤية تاريخية ودينية عميقة، وتستهدف ليس فقط تحرير المسلمين من أسر الغرب والشرق، بل وإنقاذهم من وهدة التخلف الفكري، وبناء أسس الحضارة الإسلامية المتميزة في العصر الحديث[1].

فالإمام الشيرازي استطاع بفكره المستنير وثقافته الموسوعية أن يقدم للأمة (منظومة فكرية متكاملة). ومن الصعب ـ في هذه العجالة ـ الإحاطة بكل أفكاره ونظرياته؛ ولكن دعونا نركز على أهم أفكاره التي جاهد من أجل تحقيقها والتي يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

١- التوعية الثقافية:

ركَّز الإمام الشيرازي في الكثير من كتبه ومحاضراته على أهمية التوعية الثقافية للمسلمين من أجل الارتقاء بهم إلى سلالم التقدم والرفعة والحضارة؛ فالأمة المثقفة والواعية تستطيع أن تتقدم إلى الأمام دائماً، أما الأمة الجاهلة وغير

الواعية فإنها لن تستطيع أن تتجاوز حالة التخلف والتأخر والانحطاط الحضاري.

ولذلك يرى الإمام الشيرازي أن تعميم الوعي الإسلامي واجب على كل مسلم، إذ يقول: « من الواجب على كل مسلم أن يعمم الوعي الإسلامي العقائدي والاقتصادي والسياسي والشرائعي والاجتماعي والتربوي والعسكري والزراعي والصناعي والاستقلالي في كل البلاد الإسلامية بواسطة الإذاعة والصحف والمجلات والنوادي والكتب والمؤتمرات وغيرها » [٢].

والجهاد بالقلم واللسان أفضل من الجهاد بالسيف في نظر الإمام الشيرازي إذ يقول ما نصه: « في سبيل إعطاء الرشد الفكري للمسلمين علينا بالجهاد، الجهاد بالقلم واللسان وبمختلف وسائل الإعلام العصرية المؤثرة، وهذا أفضل من الجهاد في المعركة، ولذا نجد الحديث الشريف يقول: « **مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء** » لماذا؟

إن السبب واضح ذلك أن القلم واللسان هما اللذان يسببان تحرك الناس نحو الجهاد في ميادين القتال، إضافة إلى أنهما هما اللذان يحفظان الشريعة ويحافظان على مكتسبات الجهاد في المعارك » [٣].

ويعتبر الإمام الشيرازي أن أحد أسباب التقدم هو التوعية الثقافية، وأحد عوامل التخلف هو الجهل وعدم الوعي. يقول: « لقد تركنا توعية الناس ونشر المعارف الإلهية فتأخرنا، وقام المبطلون والمنحرفون بنشر أفكارهم فتقدموا.. وتلك هي سنة اللَّه في الحياة » (٤).

ولذلك يرى الإمام الشيرازي ضرورة نشر الثقافة في المجتمع، وتوعية الناس؛ لأن « الثقافة هي التي ترسم للأجيال مسيرتها، وهي التي تحدد طريقة تعامل الأمة مع الأحداث والوقائع، وهي التي تعين مستقبل الأمة. فالثقافة الإسلامية الأصيلة تجعل الأمة تسير سيراً متميزاً في الحياة فكرياً، وعملياً، ونظرياً، وسلوكياً. والمسلمون في الصدر الأول تحلوا بهذه الثقافة فحرروا نصف الكرة الأرضية بعد أقل من ثلث قرن من بداية جهادهم المقدس في السنة الأولى للهجرة.

إن الثقافة الإسلامية واضحة المعالم، وهي مأخوذة من الكتاب والسنة، والكتب الفقهية والإسلامية بشكل متكامل. فإذا استطعنا إعادة هذه الثقافة وتعميمها فعندئذٍ نكون قد تقدمنا خطوة أخرى في طريق تحقيق الحكومة الإسلامية العالمية الواحدة » (٥).

فالثقافة هي التي ترسم للإنسان كما المجتمع والأمة

المسير والمصير؛ فالثقافة الإسلامية توجه الإنسان نحو الخير والحق والفضيلة، في حين أن الثقافة المنحرفة توجه الإنسان نحو الباطل والفساد والرذيلة.

ولكل ذلك، اهتمَّ الإمام الشيرازي كثيراً بموضوع الثقافة، والتوعية الثقافية، ودعا إلى ضرورة تثقيف المسلمين وتوعيتهم قبل أن يقوم الآخرون بفعل ذلك. ويرى أن من الضروري الاستفادة من جميع الوسائل والأساليب المشروعة في سبيل إعطاء الرشد الفكري والثقافي للأمة، وتنمية الوعي الديني في البنية الاجتماعية العريضة.

٢- السلام:

من أهم أفكار الإمام الشيرازي التي نَظَّر لها كثيراً هو مبدأ السلام في الإسلام أو اللاعنف. فالسلام ـ كما يقول الإمام الشيرازي ـ أحمد عاقبة، وأسرع للوصول إلى الهدف، السلم والسلام والمسالمة أصول توجب تقدم المسالم، بينما غير المسالم والعنيف دائماً يظل متأخراً[٦].

ولأن السلام واللاعنف يجب أن يشمل كل شيء في الحياة، فإن البداية يجب أن تكون مع الذات، مع النفس. يقول الإمام الشيرازي: « إن للتلقين أثراً كبيراً في داخل

الـنفس، فالإنسـان بطبيعتـه يغضـب ويثـور ويـذكر معايـب الآخرين ويدخل مع الناس في صراع ونزاع وحقـد وبغضـاء وعداء ومقاطعة وما أشبه. فاللازم اجتثاث جذور هذه الأمـور من قلب الإنسان وبالتبع جوارحـه وذلـك بـالتلقين الـدائم بأنه إنسان ملائم مسالم، حازم، عاقل، مفكر، مدبر، مـدير.. فإذا لَقَّن نفسه بهذا التلقين ليله ونهاره وشـهره وسـنته فإنـه يتطبع بطابع السلم. وكذلك يجـب علـى الإنسـان أن يكـون حافظاً ليده، لقلمـه، لحركتـه، لسـكونه، لكـل شـيء حتـى يتمكن من أن يقدم الأمة إلى الأمام »[٧].

ومن ثم يجب أن يشمل السلام كل شيء في حياتنـا... السـلام في العلاقـات الاجتماعيـة، والسـلام في العلاقـات العائلية الأسرية، والسلام بين الحركات الإسلامية، والسـلام بين أعضاء الحركة الواحدة، والسلام في العلاقات السياسية، والسلام في الشراكة الاقتصادية، والسلام بـين أبنـاء الـوطن الواحد، والسلام حتى مع الأعداء فضلاً عن الأصدقاء.

فشـعار الإسـلام ـ كمـا يقـول الشـيرازي ـ السـلام، وليسـت الحـرب والمقاطعـة وأسـاليب العنـف إلا وسـائل اضطرارية، شاذة، على خلاف الأصـول الأوليـة الإسـلامية، حالها حال الاضـطرار لأكـل الميتـة ومـا أشـبه، وإنمـا الأصـل

السلام. ولذا تقدر الحرب بقدرها في الإسلام[٨].

ويستدل الإمام الشيرازي على نظريته (السلام) بالعديد من النصوص الدينية، والشواهد التاريخية وبالخصوص سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكيف أنه استطاع فتح مكة المكرمة دون إراقة أية قطرة دم. كما أنه صلى الله عليه وآله وسلم عفا عن أهل مكة الذين حاربوه بشدة وقال كلمته التاريخية: « **اذهبوا فأنتم الطلقاء** » وعفا حتى عن أبي سفيان الذي كان من أشداء أعداء رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، ليس هذا فحسب؛ بل وجعل داره مأمناً وقال: « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن » كما أنه أهدى لمشركي مكة مجموعة من الأواني الذهبية التي غنمها في خيبر وذلك من أجل إدخالهم في الإسلام، وهو ما تحقق فعلاً.

والإمام علي عليه السلام هو الآخر استخدم سلاح السلام والعفو تجاه أعدائه، فقد عفا عن مروان وابن الزبير، وعن جميع أهل البصرة الذين حاربوه بضراوة في حرب الجمل.

وبعد أن قرأ الإمام الشيرازي بعمق وتمعن سيرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وسيرة الإمام علي عليه السلام، وسيرة الأئمة الطاهرين عليهم السلام، وسيرة الأنبياء العظام، وسيرة المصلحين، وتجارب الشعوب والأمم استنبط هذا المبدأ الهام في الحياة

وهو: مبدأ السلام وأنه الأصل، وماعداه استثناء وضرورة، والضرورات تقدر بقدرها.

ونتيجة السلام هو الاستقرار والبقاء والاستمرار أما العنف فإن نتيجته الفناء والانتهاء. يقول الإمام الشيرازي: « إن الجانحين إلى السلام بقوا أعلاماً في بلادهم وفي غير بلادهم، بينما الجانحون إلى العنف والخشونة والشدة والغلظة ذهبوا ولم يَبْقَ لهم أثر إلا آثار النفرة والابتعاد »[٩].

والإمام الشيرازي لا يرى أية مشروعية للانقلابات العسكرية، ولا للأعمال الإرهابية؛ بل يرى أن التغيير الاجتماعي يجب أن ينطلق من الجماهير، وباستخدام أساليب سلمية.

وفي حقبة الثمانينيات من القرن العشرين المنصرم عندما كان شعار العنف والقوة هو الشعار السائد عند أغلب الحركات الإسلامية كان الإمام الشيرازي يُراهن على شعار السلام واللاعنف كوسيلة مثلى للتغيير الاجتماعي والسياسي. فاللاعنف ـ في نظر الشيرازي ـ لا يعني عدم ممارسة النقد، أو عدم العمل للتغيير، أو الصمت تجاه ما يرتكبه الطغاة من ظلم وديكتاتورية واستبداد؛ وإنما يعني استخدام الوسائل السلمية في محاربة الطغاة والمتكبرين

حتى تتحقق الأهداف المطلوبة.

وقد انتهت الكثير من تجارب الحركات الإسلامية وغير الإسلامية ممن اتخذت أساليب عنفية إلى الفشل أو وصلت إلى طريق مسدود؛ كما أن الثمن الذي دفعته تلك الحركات كان باهضاً للغاية؛ ومع ذلك لم تستطع تحقيق أهدافها كما هو واضح لكل مراقب للأحداث التي وقعت وتقع في غير بلد من بلاد المسلمين.

فالواجب ـ كما يعتقد الإمام الشيرازي ـ أن يكون شعار الحركة الإسلامية السلام: السلام قولاً، السلام فعلاً، السلام كتابة، والسلام في كل موقع، ومع كل الناس.

٣- الأخوة الإسلامية:

في المفهوم الإسلامي يعتبر كل مسلم متساوٍ مع جميع المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم، بلا فرق بين مسلم وآخر؛ فالإسلام لا يقر بالتمايز القائم على أساس الاختلاف في اللغة أو اللون أو العرق أو الجنس.. بل إن الجميع متساوون أمام القانون الإسلامي. وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[١٠].

يقول الإمام الشيرازي: « العربي والفارسي والهندي

والأندنوسي وغيرهم [من المسلمين] كلهم أخوة، لا تمايز بين أحدهم في أي شيء، وهم متساوون أمام القانون الإسلامي، فلا قوميات ولا إقليميات ولا لغات ولا ألوان تفصل بعض المسلمين عن بعض. وقد آخى الرسول ﷺ بين الرجال بعضهم مع بعض، كما آخى بين النساء بعضهم مع بعض عندما ورد المدينة المنورة »[11].

وقد كانت البشرية قبل الإسلام على أشدّ ما يمكن من الاختلاف فكانت فوارق اللون واللسان والعنصر والجغرافية والقبيلة تفرق بين إنسان وآخر؛ وعندما جاء الإسلام أزال جميع هذه الفروقات وحمل شعار: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ فكل واحد هو أخ للآخر[12].

ولكن لماذا نرى اليوم التفرقة الفظيعة بين المسلمين؟ فلم يعد المسلم أخاً للمسلم؟ ولم يعد يساويه في الحقوق والواجبات؟!

إن السر في ذلك يعود إلى ابتعاد المسلمين عن الإسلام، وإقصاء الإسلام عن الحياة. ومن جهة أخرى فقد عمل الاستعمار الذي احتل البلاد الإسلامية لعقود متطاولة على زرع التفرقة والفتنة بين المسلمين. يقول الإمام الشيرازي: « لقد فرق بيننا الاستعمار،

ووضع الحواجز بين الأخ وأخيه؛ فالعراقي لا يحق له العمل في باكستان، والباكستاني لا يحق له أن يشتري بيتاً في العراق، والشامي لا يحق له السفر إلى العراق إلا بجواز سفر.. وهكذا دواليك. لقد خسر المسلمون الكثير عندما خسروا الأخوة الإسلامية »[١٣].

إن الأخوة الإسلامية هي أهم أساس من أسس البناء كما عبر عن ذلك الإمام الشيرازي. فلا بناء ولا تقدم ولا ازدهار من دون أخوة إسلامية بين جميع المسلمين، بَيْدَ أن الأخوة بين المسلمين تذيب الكثير من الحساسيات والتمايزات العنصرية التي أوجدها الاستعمار، والجهل، والتخلف. ومن ثم، فإن التعاون بين المسلمين كأخوة يؤدي إلى إيجاد قفزة نوعية في حياة المسلمين؛ لأن التعاون على أساس الأخوة الإسلامية يساهم بصورة فعّالة في العمل بفاعلية وإتقان وإخلاص. كما أن تكامل الإمكانات المتوافرة في أبناء الأمة الإسلامية سيخلق قفزات نوعية في مجال الاكتشاف والابتكار والإبداع العلمي مما سيكون له أكبر الأثر في دفع الأمة الإسلامية نحو التقدم والتطور والنمو العلمي والبناء الحضاري.

٤- الأمة الإسلامية:

الأمة الإسلامية هي أمة واحدة في جميع الشؤون، فلا حدود جغرافية أو لونية أو لغوية أو غيرها، وإنما هي أمة واحدة، وكل فرد فيها متساوٍ كسائر الأفراد الآخرين[١٤].

ولكن هل نحن اليوم أمة واحدة أم أمم متفرقة مشتتة مبعثرة القوى؟!

ويجيب الإمام الشيرازي بقوله: « نحن تفرقنا بعد أن كنا أمة واحدة؛ فالحدود الجغرافية التي نشاهدها اليوم لا يتجاوز عمرها ثلاثة أرباع القرن. وكان أول من وضع هذه الخطوط الوهمية هو الاستعمار البريطاني » ويضيف قائلاً: « لقد خسرت الأمة الكثير عندما خسرت وحدتها، لقد كان المسلم يخرج من بيته إلى أي بلد إسلامي يريده دون أن يطالب بأي شيء، أما اليوم فقد تغيرت الصورة تماماً » [١٥].

لقد كانت الأمة الإسلامية أمة قوية، ومتماسكة، ومتقدمة حضارياً عندما كانت أمة واحدة؛ أما اليوم حيث تمزقت الأمة الإسلامية وأصبحت شيعاً وأحزاباً، فإن النتيجة واضحة للعيان حيث تعيش الأمة في ذروة ضعفها وانحدارها، وقد أدى ذلك إلى عدم قدرتها على إنجاز تطلعات أبنائها،

وغير متمكنة من استرداد حقوقها المغتصبة من قبل الكيان الصهيوني المحتل الذي أصبح يستخف بالأمة الإسلامية رغم إمكانياتها وقدراتها الهائلة!

ولا سبيل أمام الأمة الإسلامية لكي تستعيد حقوقها، وتقوي مكانتها، وتبني حضارتها، وتشيد نهضتها إلا بالوحدة الإسلامية بحيث تكون الأمة الإسلامية أمة واحدة كما كانت، وهكذا يجب أن تكون كما أراد اللَّه تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾[١٦].

٥- الوحدة الإسلامية:

من أهم المسائل التي أولاها الإمام الشيرازي أهمية بالغة في فكره مسألة (الوحدة الإسلامية) لأن الوحدة تؤدي إلى قوة وعزة المسلمين، كما أنها السبيل الصحيح من أجل امتلاك القدرة على مواجهة التحديات الكبرى، والمشاكل الصعبة التي تواجه الأمة الإسلامية وخصوصاً في هذا العصر. أما الفرقة والتفكك فهذا ما يريده الاستعمار وأعداء الإسلام لأنهم بذلك يستطيعون أن يسيطروا على بلاد المسلمين وثرواتهم.

والوحدة الحقيقية ليست شعاراً برّاقاً يُرفَع وإنما يجب

أن تتحول إلى ممارسة عملية على أرض الواقع؛ وإلا فإن الأغلب ـ عادة ـ ما يرفعون شعار الوحدة، ولكنهم في الممارسات العملية أبعد ما يكونون عن الوحدة وأهدافها.

يقول الإمام الشيرازي: « من أهم ما يلزم على السالكين سبيل النجاة الحفاظ على الوحدة الإسلامية، أما بالقول فهو سهل يسير، وأما بالعمل فهو صعب عسير، ولذا لا تجد حتى جماعة واحدة لا تنادي بها وفي نفس الوقت لا تجد حتى جماعة واحدة تتحمل مسؤولياتها وتسلك طريقها إلى حيز الوجود، عادة »[١٧] فالمطلوب هو أن نؤمن بالوحدة نظرياً، وأن نسعى إلى تطبيقها عملياً، وأن نبتعد عن كل ما يثير الفرقة والتناحر والتنازع بين المسلمين.

والوحدة ـ في مفهوم الإمام الشيرازي ـ لا تعني أن ترفع جماعة يدها عن معتقداتها، أو لا تستعد للدفاع عنها؛ بل معناها أن يكون المسلمون صفاً واحداً أمام الشرق والغرب وتطبيق المتفق عليه في الإسلام[١٨].

فالوحدة لا تعني إطلاقاً إلغاء الخصوصيات الثقافية أو المذهبية أو الفكرية أو الاجتماعية، وإنما تعني ـ فيما تعني ـ التوحد في إطار التنوع، والتركيز على نقاط الاتفاق بين المسلمين، وعدم إثارة ما يسبب الفرقة والشقاق بينهم. وهذا

يتطلب ـ بنظر الشيرازي ـ أكثر قدر من التعقل لحفظ الوحدة المستلزمة للتواضع، والاستشارة، والتعاون والتماسك.

وقد طَبَّق الإمام الشيرازي بنفسه الوحدة في حياته وسلوكه وتعامله مع الآخرين، كما في فكره ونظراته ورؤاه المختلفة؛ حيث كان همه الأكبر هو تحقيق الوحدة نظرياً وعملياً بين المسلمين. وعندما رفع الإمام الشيرازي راية الوحدة الإسلامية لم يكن مجرد شعار فارغ من المضمون؛ وإنما كان ينطلق من رؤية دينية تدعوه إلى اتباع سبيل الوحدة، واجتناب سبيل الفرقة والتنازع.

وقد كان قدس سره من الداعمين بقوة للوحدة الإسلامية بين السنة والشيعة وألَّفَ في ذلك كتاباً بعنوان: (كيف نجمع شمل المسلمين) كما أشار إلى ذلك أيضاً في العديد من كتبه الأخرى. كما كان من أبرز من دعا إلى وحدة المرجعية الدينية تحت إطار (شورى الفقهاء المراجع) وكتب عن ذلك في الكثير من كتبه المنشورة. كما كان يدعو دائماً إلى وحدة الحركة الإسلامية وإنشاء حركة إسلامية عالمية واحدة وصولاً إلى إقامة دولة إسلامية عالمية واحدة.. وقد أوضح أفكاره في هذه المسألة في العديد من كتبه ومؤلفاته ككتاب (إلى حكومة

ألف مليون مسلم) وكتاب (الحكم في الإسلام) وكتاب (الدولة الإسلامية) وغيرها من الكتب.

والإمام الشيرازي طوال حياته كان يشجع على الوحدة، ويدعو إليها، ويركز عليها. ومن جهة أخرى كان ضد كل مظاهر الفرقة والتشتت والتنازع وذلك انطلاقاً من فكر الإسلام وتعاليمه؛ فالإسلام يدعو إلى الوحدة وينبذ الفرقة والشقاق. يقول تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ**﴾[١٩]، ويقول تعالى: ﴿**وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[٢٠].

ولا خلاص للأمة الإسلامية من كبوتها الحضارية إلا بانتهاج سبيل الوحدة؛ فالوحدة عنوان التقدم والتحضر والقوة، أما الفرقة فهي عنوان الضعف والتأخر والانحطاط.

٦- الحرية الإسلامية:

مسألة الحرية من المسائل الجوهرية في صياغة الحياة الإنسانية؛ فبالحرية يمكن للمجتمع البشري أن يتقدم ويتطور نحو الأفضل، بينما الدكتاتورية تساهم في قتل الإبداع والتقدم، وفي تكريس التخلف والتأخر الحضاري.

وقد أدرك الإمام الشيرازي ببصيرته الثاقبة أن أكبر مشكلة تواجه العالم الثالث ـ ومنه العالم الإسلامي ـ هي مسألة غياب الحريات وتجذر الدكتاتوريات في مختلف صور الحياة. ولذلك فقد ركز الإمام الشيرازي في الكثير من كتبه على أهمية توافر الحريات العامة، واحترام حقوق الإنسان التي أقرها الإسلام، ورفض الدكتاتورية بشتى صورها وأشكالها وصيغها.

ويستدل الإمام الشيرازي بالعديد من النصوص الدينية على الحرية في الإسلام.. كقوله تعالى: ﴿**وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**﴾[٢١] وقوله تعالى: ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[٢٢] وقوله تعالى: ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ**﴾[٢٣] ويقول الإمام علي عليه السلام: « **لا تكن عبد غيرك وقد جعلك اللّه حراً** »[٢٤] إلى غير ذلك من الأدلة النقلية التي تدل على سعة الحرية الإسلامية[٢٥].

فالإسلام دين الحرية، وما هو موجود في الغرب حالياً من الحريات لا يساوي حتى عُشر الحريات الموجودة في

الإسلام حسب تقدير الإمام الشيرازي (قدس سره الشريف).

والحرية في الإسلام ـ كما يقول الإمام الشيرازي ـ هي حرية بناء وليست حرية هدم كما هو الحال في الغرب، حرية تقدم وليست حرية امتصاص ثروات ودماء الآخرين، حرية ازدهار لا حرية انحطاط.. إذن يجب أن تكون مسؤولة. فالإسلام يرفض الحرية التي تؤدي إلى الزنى، بما يجر من ويلات وأمراض وتفكك أسري و...، وإلى اغتصاب أموال الناس، وإلى سرقة الثروات.. ولا يقر هذا النوع من الحرية. فالحرية الإسلامية هي حرية إنسانية ترفع من شأن الإنسان وتوصله لمصاف الملائكة.. وهذه نقطة هامة في التعريف بمسلك الحرية[٢٦].

وعن شمولية الحرية في الإسلام يرى الإمام الشيرازي قدس سره أن الحرية عامة لجميع الناس حتى الكفار [على تفصيل في المسألة] في مختلف أنواع الحقول منها: الحرية الفكرية: أي حرية البحث والمناقشة في البحوث العلمية والبحوث الدينية.

ومنها: الحرية الاقتصادية: أي حرية الاكتساب بجميع أنحائها.

ومنها: الحرية الدينية: أي التسامح نحو الأديان الأخرى.

ومنها: الحرية السياسية: التي تتناول العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وأن الحاكم يجب أن يكون باختيار الأمة وممن يتوفر فيه رضا اللَّه سبحانه وتعالى وسائر الشروط الإسلامية[٢٧].

وقد ذكر الإمام الشيرازي في كتابه (الصياغة الجديدة) ١٠٠ نموذج للحريات الإسلامية، كما تحدث ﷺ بالتفصيل في كتابه القيِّم (الحريات) وكذلك في كتابه (الحرية الإسلامية) عن الحريات الموجودة في الإسلام، وسعة تلك الحريات وشمولها لمختلف جوانب الحياة.

لقد كان الإمام الشيرازي مولعاً بالحرية، وعاشقاً لها، ولذلك ناضل من أجل تحقيقها على أرض الواقع، لأنه يعرف معنى الحرية، وضرورتها في البناء الحضاري، والإبداع العلمي؛ فبدون الحرية لا تقدم ولا تطور ولا إبداع ولا تحضر. ولذلك كان دائماً ما يركز حديثه حول الحرية وقَلَّما يخلو أي كتاب من كتبه الكثيرة من الحديث حول الحرية في الإسلام.

ومن جهة أخرى كان ﷺ معادياً بشدة للدكتاتورية لأنها أصل كل بلاء، ومنبت كل شر، وسبب كل تخلف وانحطاط. وقد كتب مفصلاً في كتابه القيِّم (ممارسة التغيير

لإنقاذ المسلمين) في الباب الثاني (بحوث في الدكتاتورية) سلَّط فيها الأضواء على مسألة الدكتاتورية وعواقبها ونتائجها الوخيمة على الأفراد والمجتمعات البشرية.

فالإمام الشيرازي يعتقد أن التقدم مرهون بالحرية. ويضيف قائلاً: فبدونها لا يستطيع الإنسان أن يتقدم قيد أنملة، فالحرية هي التي تفسح الطريق أمام قدرات الإنسان وكفاءاته، لكي تتفجر في مجال العمل المثمر. وكما تقدم المسلمون الأوائل بسبب الحرية، فإنهم سيتقدمون أيضاً ويعودون قادة للعالم ورواداً للعلم والفضيلة والتقوى إذا عادوا لاستخدامها من جديد[٢٨].

والغرب لم يتقدم إلا عندما أتاح الحريات لجميع الناس، وهي قليلة بالمقارنة مع الحريات الموجودة في الإسلام. وعندما كان المسلمون ينعمون بالحريات ـ ولو نسبياً ـ كانوا أسياد العالم، ورواد الحضارة، ومنابع العلم. وعندما سادت الدكتاتورية تأخر العالم الإسلامي، وانهزم عسكرياً، وضعف سياسياً، وتخلف اقتصادياً، وتقهقر حضارياً.

ولذلك كله، اعتبر الإمام الشيرازي أن توافر الحريات، وسيادة القانون، وتكافؤ الفرص، واحترام حقوق الإنسان هو حجر الأساس لأي تقدم، ولأي ازدهار، ولأي بناء حضاري.

خلاصة الأفكار:

لقد استطاع الإمام الشيرازي (رضوان اللّه عليه) أن يبلور (منظومة فكرية متكاملة) وقد استعرضنا أهم مفردات هذه المنظومة والتي هي: (التوعية الثقافية) و (السلام أو اللاعنف) و (الأخوة الإسلامية) و (الأمة الإسلامية) و (الوحدة الإسلامية) و (الحرية الإسلامية) و بقيت مفردات مهمة أخرى مثل: (الشورى) و (التنظيم) و (التعددية) و (الاكتفاء الذاتي) و (العمل المنتج) و (البناء الأخلاقي) وغير ذلك من المفردات التي ركز عليها الإمام الشيرازي، والتي تشكل بمجموعها (منظومة فكرية متكاملة) وهذه المنظومة مستوحاة من هدي كتاب اللّه العزيز وسنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام.

ويمكن للقارئ العزيز أن يراجع أمهات كتب الإمام الشيرازي في المجال الفكري لكي يلم بصورة مفصلة بمفردات المدرسة الفكرية.للإمام الشيرازي. وأهم هذه الكتب هي:

١- السبيل إلى إنهاض المسلمين.
٢- الصياغة الجديدة لعالم الإيمان والحرية والرفاه والسلام.

٣- ممارسة التغيير لإنقاذ المسلمين.
٤- طريق النجاة.

وتستهدف أفكار الإمام الشيرازي -فيما تستهدف- بناء الفرد الصالح، وصياغة المجتمع الراشد، وتشييد الأمة الإسلامية الواحدة، وصولاً إلى بناء الحضارة الإسلامية الشامخة في ظل دولة إسلامية عالمية واحدة.

هوامش الفصل الثاني

(١) في رحاب الإمام الشيرازي، طبع عام ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م، ص٧٢.
(٢) السبيل إلى إنهاض المسلمين، السيد محمد الشيرازي، دار المنهل، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م، ص١٩.
(٣) نفس المصدر السابق، ص٢١.
(٤) نفس المصدر السابق، ص٢٠.
(٥) نفس المصدر السابق، ص٣٢.
(٦) نفس المصدر السابق، ص١٩٦.
(٧) نفس المصدر السابق، ص٢٣٢.
(٨) نفس المصدر السابق، ص١٩١.
(٩) نفس المصدر السابق، ص٢١٢.
(١٠) سورة الحجرات: ١٠.
(١١) الصياغة الجديدة لعالم الإيمان والحرية والرفاه والسلام، السيد محمد الشيرازي، ص٤٩١.
(١٢) إلى الكتاب الإسلاميين، السيد محمد الشيرازي، الناشر: هيئة محمد الأمين، الطبعة الثانية ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م، ص٣٦.
(١٣) نفس المصدر السابق، ص٣٦.
(١٤) الصياغة الجديدة لعالم الإيمان والحرية والرفاه والسلام، مصدر سابق، ص٤٨٧.
(١٥) إلى الكتاب الإسلاميين، مصدر سابق، ص٣٣.

(١٦) سورة المؤمنون: ٥٢.
(١٧) طريق النجاة، السيد محمد الشيرازي، دار الصادق، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م، ص١٤٤.
(١٨) انظر المصدر السابق، ص١٤٥.
(١٩) سورة آل عمران: ١٠٣.
(٢٠) سورة الأنفال: ٤٦.
(٢١) سورة الأعراف: ١٥٧.
(٢٢) سورة البقرة: ٢٥٦.
(٢٣) سورة الغاشية: ٢١ ـ ٢٢.
(٢٤) نهج البلاغة، مصدر سابق، الجزء الثالث، الكتاب رقم ٣١، ص٥٧٠.
(٢٥) للمزيد من الاطلاع انظر كتاب (الصياغة الجديدة) للإمام الشيرازي، ص٣١٠.
(٢٦) إلى الكتاب الإسلاميين، مصدر سابق، ص٣٩.
(٢٧) الصياغة الجديدة، مصدر سابق، ص٣١٣. ولمزيد الاطلاع حول أقسام الحريات في الإسلام اقرأ كتاب (ما هو الإسلام) للإمام الشيرازي، ص١٢٣.
(٢٨) الرجوع إلى سنن اللّه تعالى، السيد محمد الشيرازي، مؤسسة الوعي الإسلامي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م، ص٥٠.

مسائل التجديد

قراءة لقضايا التجديد في فكر الإمام الشيرازي

الفصل الثالث

مسألة التجديد في الحوزات العلمية

التجديد في الحوزات العلمية

تعتبر الحوزات العلمية الحصن الحصين للحفاظ على الدين، وتوضيح مفاهيم وتعاليم وقيم الإسلام، ورد الشبهات والشكوك التي تثار ضد الإسلام وأحكامه. فالحوزات العلمية خَرَّجت وما تزال وستبقى تخرج الآلاف من الفقهاء والمجتهدين والعلماء المفكرين.. وهؤلاء العلماء هم الذين ألَّفوا للمكتبة الإسلامية آلاف الكتب، ووضحوا للناس مفاهيم الإسلام، وحفظوا تراث الإسلام من الضياع،ووضحوا للمكلفين مسائل الحلال والحرام، وأجابوا على مستجدات المسائل، ومستحدثات القضايا.

وبقيت الحوزات العلمية مراكز إشعاع للعلم والحكمة والمعرفة، ومنابع للفكر والثقافة؛ وإن اختلف مقدار إشعاعها وتأثيرها من عصر إلى عصر، ومن زمان إلى زمان، ومن حقبة إلى أخرى حسب اختلاف الظروف والأوضاع المتغيرة.

وبالرغم من أن الحوزات العلمية تمتلك الكثير من عناصر القوة والحيوية إلا أن ذلك لا يعني أنها لا تعاني من الثغرات والنواقص؛ فالحوزات العلمية بحاجة مستمرة إلى التجديد والتطوير سواء في المناهج الدراسية أو طرق التدريس أو نظام القبول أو هيكل الإدارة أو ما يرتبط بالوضع العام للحوزات العلمية.

ولأهمية الحوزات العلمية وضرورتها في رفد الأمة الإسلامية بالفقهاء والمجتهدين والعلماء، وحرصاً على الحفاظ على دورها ومكانتها؛ فقد انبرى على طول تاريخها الطويل علماء مخلصون حملوا راية التجديد والتطوير في الحوزات العلمية، وذلك بهدف تقوية مكانتها، وتعزيز دورها، وتوسيع أهدافها.

ودعوات التجديد والتحديث والتطوير عادة ما تأتي من الفقهاء والعلماء المتميزين والمتنورين الذين يفهمون الواقع بعمق، ويعيشون عصرهم بوعي، وينظرون إلى المستقبل برؤية واضحة، ويدركون حجم التحديات والمخاطر التي تتهدد التوجه الديني؛ ولذلك يدعون إلى التجديد، ويعملون من أجله، ويسعون إلى التطوير والتحديث بخطوات عملية. إلا أن رواد التجديد والتحديث والتطوير عادة ما

يلقون معارضة شديدة ـوربما عنيفةـ من التيار الرافض للتجديد بحجة أن التجديد قد يؤدي إلى الضحالة العلمية أو السطحية الفكرية أو غير ذلك من الحجج التي يستدل بها دعاة (إبقاء ما كان على ما كان) وكأن ذلك من الثوابت التي يجب أن لا تمس مهما تغير الزمان وتبدلت الأحوال.

ومشكلة هؤلاء ـفي الغالبـ أنهم لا يقرؤون الواقع، ولا يعيشون العصر، ولا يدركون حجم المخاطر التي تتعرض لها الحوزات العلمية. ولذلك فهم يسبحون خارج الزمن ، ويفكرون في الماضي أكثر من الحاضر، ويركزون على القشور بدل الاهتمام بجواهر الأشياء!

ومع ذلك، فقد برز في كل حقبة تاريخية عمالقة في الفقه والأصول، وأساطين في العلم والفكر والثقافة ممن حملوا على عاتقهم راية الإصلاح والتجديد والتطوير في الحوزات العلمية، متحملين في سبيل ذلك شتى المتاعب والمشاكل وردود الأفعال الغاضبة من الرافضين لكل تجديد أو تحديث أو تطوير!

وفي العقود الأخيرة من القرن العشرين برز الإمام الشيرازي (رضوان اللّه عليه) كواحد من ألمع وأبرز أولئك المجددين المتنورين الذين دعوا إلى التجديد في الحوزات

العلمية وتطويرها وتنظيمها على أسس حديثة كي تستطيع مواكبة متغيرات العصر، وتمتلك القدرة على مواجهة التحديات والمخاطر، وتتمكن من التأثير والتغيير الاجتماعي.

وقد قَدَّم لنا الإمام الشيرازي رؤية متكاملة حول نظرته إلى ما يجب أن تكون عليه الحوزات العلمية، وإلى ما يجب أن يكون عليه طلاب الحوزات العلمية، وقد كتب في هذا المجال العديد من الكتب مثل:

١- إلى الحوزات العلمية.
٢- إلى طلاب العلوم الدينية.
٣- هل رجال الدين مقصّرون؟
٤- الحاجة إلى علماء الدين.
٥- نظام الحوزات العلمية في العراق.
٦- رسالة أهل العلم.
٧- كيف ينبغي أن تكون قم المقدسة؟

وفي هذه الكتب القيمة يقدم لنا الإمام الشيرازي رؤية جديدة لما يجب أن تكون عليه الحوزات العلمية، داعياً إلى ضرورة إعادة ترتيب وتنظيم وتطوير الحوزات العلمية بما يؤدي إلى القيام بواجباتها على أحسن وجه، كما يوضح دور

علماء الدين ورسالتهم في الحياة ومسؤولياتهم تجاه الدين والمجتمع والأمة.

ويرى الإمام الشيرازي أنه من أجل ازدهار الحوزات العلمية وتطويرها لابد من توافر ما يلي:

١ـ الحريات العامة: مثل تشكيل الأحزاب الحرة، والتعددية السياسية، والحرية الفكرية... بحيث يُمنَع الاستبداد السياسي في المجتمع.

٢ـ شورى المراجع: وفي هذا المجال يقترح أن يجتمع المراجع بأنفسهم أو بوكلائهم كل عام مرة أو مرتين ليقرروا المسير والمصير، كما تجتمع كبار الهيئات الدولية مثل الأمم المتحدة، والمؤتمر الإسلامي، وجامعة الدول العربية، ومنظمة الوحدة الأفريقية.. والأمثلة تضرب ولا تقاس.

٣ـ الوعي المتناسب، إذ بدون الوعي لا يعرف الإنسان كيف الطريق.

٤ـ المحافظة على استقلالية الحوزات العلمية حتى تعرض أفكارها بحرية وبدون قيود، وتعبر عن آراء الإسلام كما هو حقاً لا كما ترغب الحكومات حسب مصالحها وأهوائها[1].

ومما لا شك فيه أن توافر الحريات العامة، واجتماع المراجع دورياً، وتنامي الوعي العام، والمحافظة على استقلالية الحوزات العلمية يؤدي إلى ازدهار عظيم وتطور متميز في الحوزات العلمية حسب تعبير الإمام الشيرازي.

ولا يختلف اثنان في أن توافر الحريات شيء أساسي وضروري للإبداع العلمي والفكري بل وحتى الفقهي؛ بحيث يستطيع الفقهاء أن يعبروا عن آرائهم الفقهية والفكرية بحرية من دون خوف أو وجل من أحد. أما كبت الحريات فيؤدي إلى التحفظ في الآراء، وعدم الجهر بما يقتنع به الفقيه إذا كان مخالفاً للجو السائد وهو ما يؤدي إلى الحجر على الأفكار والآراء، مما يستدعي تعطيل الاجتهاد في القضايا الشائكة والمسائل المثيرة أو الخلافية أو الحساسة.

ومن الضروري للغاية أن تبقى الحوزات العلمية حُرة ومستقلة عن تأثير الحكومات أو أصحاب النفوذ والمال كي تتمكن من الإبداع العلمي والفكري؛ فبدون الحرية والاستقلالية لا يمكن الإبداع والتجديد في الأفكار والمعارف والآراء العلمية. ولذلك ركز الإمام الشيرازي على ضرورة الحفاظ على استقلالية الحوزات العلمية وتوفير الحريات لها كي تتمكن من أداء رسالتها على خير وجه، وأحسن طريقة،

وكـي يـتمكن الفقهـاء مـن الإبـداع والتجديـد في مختلـف المعارف والعلوم الشرعية والإنسانية.

منهج التجديد:

يتفق الكـثير مـن الفقهـاء والعلمـاء وأسـاتذة الحـوزة العلميـة علـى ضـرورة وأهميـة التجديـد في الحـوزة؛ إلا أن إحداث عملية التجديد والتغيير في منـاهج الحـوزة وبرامجهـا يتطلب الكثير من الشجاعة والإرادة والعزم والتصـميم مـن أجل تحقيق ذلك، خصوصاً إذا علمنا أن هناك تيـاراً قويـاً في الحوزة العلمية يرفض أي تجديد، ويتمسك بالقديم ولو كـان هذا القديم قد أصبح من ذكريات الماضي ولم يعد له أية صلة بالواقع؛ وهذا ما يجعل البعض يحجم عن ممارسة التجديد في الحوزة بالرغم من إيمانه بضرورة ذلك!

والإمام الشيرازي بما اتصـف بـه مـن شـجاعة وجـرأة وإدراك لأهمية وضرورة التجديد في الحوزة العلمية من أجـل أن تتمكن من التأثير والتغيير الاجتماعي، وكي تسـتطيع أن تواكب متغيرات العصر وتطوراته، وقبل ذلك فإن التجديـد والتحديث حاجة أساسـية إذا مـا أريـد للحـوزة العلميـة أن تتطور، وأن تمتلك الفاعلية المطلوبة.. لكل ذلك، فقد انـتهج الإمام الشيرازي مجموعة مـن الخطـوات المهمـة علـى طريـق

التجديد والتطوير في الحوزة العلمية بهدف إحداث تغيير نوعي في المسيرة المباركة للحوزة العلمية. ويمكن أن نلخص أهم الخطوات التي اتبعها الإمام الشيرازي في منهجه التجديدي في العناصر التالية:

١- التربية الأخلاقية:

ركَّز الإمام الشيرازي على التربية الأخلاقية والروحية لتلامذته، واعتبر أن تربية الروح وتزكية النفس وتهذيبها شيء ضروري في تربية الإنسان وخصوصاً عالم الدين الذي يفترض فيه أن يكون قدوة للآخرين.

وقد اعتمد درس الأخلاق كأحد الدروس الأساسية في الحوزات التي أنشأها الإمام الشيرازي؛ وذلك من منطلق أن طالب العلم كما يحتاج إلى التربية العلمية والفكرية يحتاج أيضاً إلى التربية الروحية والأخلاقية.

يقول الإمام الشيرازي: «يجب أن تتهذب النفوس حتى يكون طلاب العلوم الدينية أسوة ونماذج لعصرهم لأن فضيلة الإنسان إنما هي في طهارة النفس وتزكيتها، والإسلام الذي وصل إلينا إنما كان من أثر الفضائل النفسانية للنبي الأكرم ﷺ والأئمة

الطـاهرين عليهم السلام لأن أي قائـد إسـلامي يجـب أن يتحلـى بأكبر ما يمكن مـن الخلـق الرفيـع والمعاملـة العطوفـة المحببـة مـع النـاس لكـي يجلـبهم إلى نـور الإسـلام، أو يبقـيهم في الإسـلام؛ فـإن أفضـل وأسـهل وأسـرع وأعمـق العوامـل لـزرع المحبـة في القلـوب هـي الأخـلاق الفاضـلة والمعاملـة الإنسانية العطوفة مع الناس »[٢].

وقـد كـان الإمـام الشـيرازي بنفسـه مدرسـة أخلاقيـة وروحية مما انعكـس علـى تلامذتـه وتلامـذة تلامذتـه؛ فقـد عُرِف عن سماحته دام ظله أنه كان يتصف بمكارم الأخـلاق؛ بـل كانت أخلاقـه مضـرب المثـل للخـاص والعـام. فهـو شـديد التواضع، يحترم الجميع، دائم الابتسـامة، يعفـو عمـن أسـاء إليه ويصفح، يوزع نظراته إلى كل جلسائه، ويبـدي اهتمامـه بجميع زائريه، إذا زرته مرة رغبت في زيارتـه كـل مـرة.. هـذه الأخلاق الفاضلة والراقية كانت خير وسيلة لتربيـة تلامذتـه وطلاب حوزاته.

وبالإضـافة إلى ذلـك، كـان يـدرس درس الأخـلاق في حوزاته ومدارسـه، وذلـك مـن أجـل تربيـة طـلاب العلـوم الدينية على الأخلاق الفاضلة وتزكيـة نفوسـهم؛ فـالحوزات مدرسة للتربية والتعليم في آن واحد.

٢- المزاوجة بين العلم والعمل:

يعتقد الإمام الشيرازي ضرورة الجمع بين العمق العلمي والنشاط العملي، فالعلم ما هو إلا وسيلة من أجل العمل، والعالم يجب عليه أن يكون عاملاً، وإلا فالعالم من دون عمل يُعد مقصراً عن القيام بواجباته ومسؤولياته الشرعية. فالعالم يتعلم من أجل أن يعمل، لا من أجل أن يجمد العلم في رأسه ويحتفظ به لنفسه فقط، فزكاة العلم تعليمه.

وفي الوقت الذي كان يدعو فيه الإمام الشيرازي طلاب الحوزة العلمية إلى التملي من العلم حيث يرى أنه « يلزم على العالم أن يستمر في التملي من العلم الإسلامي، فإن العلم من المهد إلى اللحد، ولعل العلوم الإسلامية تشتمل على مليون مسألة. فعلى العالم أن يستمر في مدارسة الكتب ومطالعتها، والتملي من هذا المعين الذي تنتهي الأعمار ولا ينتهي » [٣] إلا أنه أيضاً يرى أن على العالم أن يعمل بكل ما يستطيع.. يقول قدس سره: « ينبغي للعالم أن يكون ذا نشاط دائم، في مختلف شعب الحياة، فلا يهدأ ليل نهار في التعليم والتزكية، والتربية، والبناء، والعمل. كما ينبغي له تنشيط الناس بصورة مستمرة، حتى يكون شعباً واعياً عارفاً

بالمسؤولية لا يفتأ يصلح ويعمل ويبني ويكدح. والنشاط الدائم هو الذي يتمكن أن يتقدم بالمسلمين إلى الأمام »[٤].

وهكذا كان الإمام الشيرازي يربي طلابه وتلامذته على المزاوجة بين العلم والعمل، وكان كثيراً ما يحث طلاب الحوزة على أهمية التبليغ والعمل الاجتماعي ويشجعهم على ذلك.

والإمام الشيرازي بنفسه زاوج بين العلم والعمل، فقد كان غزير العلم، موسوعي المعرفة، وفي الوقت نفسه كان كثير العمل والنشاط، وهذا ما انعكس أيضاً على تلامذته وطلابه.

ومن المؤسف حقاً أن تجد في حوزاتنا العلمية من لا يرى أن من وظيفة العالم الديني أن يعمل أعمالاً اجتماعية أو ثقافية بحجة أن العمل لا يتناسب مع شرف العلم! وقد انتقد المرحوم العلامة الشيخ (محمد جواد مغنية) بمرارة هذه العقلية السطحية بقوله: « في النجف وقم علماء موهوبون يبذلون جهوداً مضنية لا تقل عن جهود المكتشفين والمخترعين من علماء الطبيعة، ولكن ما زالت عقلية أفلاطون وأرسطو تسيطر، وتقول هذه العقلية: إن العلم يطلب كغاية لأنه شريف وفضيلة بذاته، وأنه في واقعه

وحقيقته تأمل عقلي خالص، وتفلسف نظري بحت، وأن المحقق المدقق هو من يتقن الحوار والجدال، ويفحم من يعارض رأيه وقوله بالأقيسة المنطقية والإلزامات العقلية، أما التطبيق العملي وخدمة الحياة وحل مشكلاتها، فيأتي على الهامش، بل لا وجود له.

احتقر أفلاطون وأرسطو ومن على فلسفتهما، احتقروا العمل ونفروا منه لأنه بشتى أنواعه عار يختص بالعبيد، والشريف من يحيا حياة الفراغ والبطالة ويعفيه الأرقاء من كل جهد جسدي، وإذن فلم يبقَ للعلم الأعلى أية ثمرة إلا مجرد النظر والتفكير والتعمق في التحليل، وأية محاولة لاختبار صحة الفكرة في عالم التطبيق والعمل تهوي بالعلم إلى الأسفل!

ومن جملة ما قرأت أن المخترع في العصور القديمة كان يخفي مخترعاته حرصاً على أن يذكره الناس بأنه عالم نظري لا عملي، لأن العمل عيب من شؤون الأرقاء. وأيضاً قرأت أن أفلاطون غضب غضباً شديداً على عالم رياضي لأنه طبق ميكانيكياً مسألة هندسية نظرية، وقال له: شوهت جلال العلم وهبطت بالعقل إلى العمل الذليل!

والآن قد ذهب عصر التجريد والترفع عن العمل،

وجاء عصر المصانع والأنابيب، وأصبح العمل شعار الشرفاء بعد أن كان عنواناً للأرقاء، وآمن العلماء والفلاسفة في هذا العصر بأن أية فكرة لا تخدم الإنسان وترفع من حياته وتحل مشكلة من مشكلاته فهي مجرد وهم وخيال »[٥].

ومما لاشك فيه، إن ابتعاد علماء الدين عن التصدي لقضايا المجتمع يؤدي إلى انفصام المجتمع عن الحوزة، وهو ما يترتب عليه آثار خطيرة ومدمرة على مستقبل التوجه الديني في المجتمع. ولذلك يرى الإمام الشيرازي ـ وغيره من الفقهاء المجددين ـ أن من الضروري التركيز لطلاب الحوزة على التصدي لقضايا المجتمع، وحل مشاكل الناس، والجمع بين العلم والعمل. وقد اعتمد الإمام الشيرازي في حوزاته على تدريب الطلاب على القيام بأعمال مختلفة من أجل أن يروضوا أنفسهم على العمل، وتحمل المسؤوليات، جنباً إلى جنب الاهتمام بكسب العلم والمعرفة.

٣- استحداث دروس جديدة:

من أهم الخطوات التي طبقها الإمام الشيرازي في الحوزة العلمية هو العمل على تطوير المناهج الحوزوية، حيث بقيت مناهج الحوزة لفترة طويلة لم تطالها يد التجديد

والتطـوير، كمـا أن الحـوزة العلميـة لم تسـتفد مـن العلـوم الحديثة في مناهجها إلا مؤخراً.

ومـن أجـل تطـوير المنـاهج الحوزويـة أضـاف الإمـام الشيرازي إلى الدروس المتعارف عليها في الحوزة مجموعة مـن الدروس الجديدة مثل:

١- علوم القرآن الكريم.
٢- التاريخ الإسلامي.
٣- الاقتصاد.
٤- السياسة.
٥- العقائد.
٦- نهج البلاغة.
٧- الثقافة الإسلامية.
٨- تعلـيم اللغـات الحيـة كالإنجليزيـة والفرنسـية... وغيرهما.

وقد أحدث إدخال هذه الدروس الجديدة والحديثـة إلى مناهج الحوزة تغييراً نوعياً في تأهيل الطلاب علمياً وعمليـاً، ممـا يمكـنهم مـن التفاعـل مـع الطبقـات المثقفـة في المجتمـع، والتفاعـل مـع الثقافـة المعاصـرة، والإجابـة علـى مختلـف الإشكاليات الجديدة التي تطرح في وقتنا المعاصر.

وبذلك تمكَّن الإمام الشيرازي من جعل طلاب الحوزة العلمية يجمعون بين العلوم الحوزوية وثقافة العصر. وهذا الجمع مهم وضروري جداً لعالم الدين في هذا العصر، إذ لا يصح أبداً أن يكون عالم الدين منعزلاً عن ثقافة وفكر العصر؛ بل يجب استيعاب ثقافة العصر كي يتمكن من تأصيل الثقافة الجديدة بما يمتلك من رؤية شرعية، وكي يستطيع التفاعل إيجابياً مع ثقافة أهل عصره؛ وإلا فإن الجمود والانغلاق يؤدي إلى الانفصام وربما الطلاق بين علماء الدين وأهل العصر، وهو ما لا يحبذه أحد من العلماء.

٤- فهم العصر:

ينبغي لعالم الدين أن يفهم عصره، ويعيش زمانه، ويتفاعل مع قضايا مجتمعه وأمته، ولن يستطيع ذلك إلا عندما يكون منفتحاً على الثقافة المعاصرة، ومتفاعلاً مع قضايا الحاضر، ولديه رؤية استشرافية للمستقبل. أما من يعيش منغلقاً عن تطورات عصره، وغير متابع لمتغيرات زمانه، فإنه سيكون في واد، ومجتمعه في واد آخر.

الإمام الشيرازي (قدس سره الشريف) كان يرى أن

على العالم أن يعرف منطق العصر، وأن يتابع متغيرات الزمان.. يقول ما نصه: « لكل قطر، ولكل زمان، ولكل أمة منطق خاص، إن عرفه العالم تمكن من القيام بالشؤون الإسلامية، وإن لم يعرفه العالم كانت النتيجة الضمور والفشل. فعلى العالم أن يتعلم المنطق الملائم لحل مهمته، مثلاً: إذا عرف العالم الأمور الاقتصادية الإسلامية، حسب ما هو مذكور في كتاب الشرائع وشرح اللمعة والمكاسب لكنه لم يعرف النشاطات الاقتصادية في زماننا هذا، من بنوك وتأمين وبورصة وما أشبه، كيف يتمكن أن يجيب عن مئات المسائل التي توجه إليه بهذه الشؤون؟ فإنه سواء لم يجب عنها أصلاً، أو أجاب بأجوبة غير ملائمة للعصر كان الفشل المحتم »[٦].

وبذلك سنصبح خارج التاريخ، وميتين بين الأحياء عندما نضع الأساليب التي ننتهجها، والأفكار التي نحملها في إطار من الأجواء البعيدة عن الواقع المعاش.

وبالفعل فإن بعضاً من علماء الدين أصبحوا خارج التاريخ، ولا يعرفون شيئاً عن التطور، وكيفية استخدام وسائله، وبالفعل فإن الإنسان لا يلبث أن يتحول إلى كائن غريب عندما لا يواكب تطورات العصر. فالتطور ليس معناه

قراءة الكتب والجرائد فالحياة أسرع من ذلك بكثير، ولذلك فإن الواحد منا قد يتحول إلى رجل غائب عن عصره، لا يمكنه القيام بأي عمل، ولا تربطه مع عصره أية لغة تفاهم، ونحن نربأ بأنفسنا أن نكون من هذا النوع، خصوصاً وأننا نمتلك هذا الدين المرن الذي يمكنه التكيف مع جميع الظروف، وتلبية احتياجات العصر، ومماشاة التطور مهما كان سريعاً[٧].

ولأهمية أن يعيش علماء الدين وطلاب الحوزة العلمية قضايا العصر، ويفهموا الزمان الذي يعايشونه كان الإمام الشيرازي يحث تلامذته وطلابه على متابعة كل جديد، والاهتمام بقضايا المسلمين، والتصدي لقضايا المجتمع، والعمل على حل المشكلات، وإيجاد البدائل، وعدم الاكتفاء بالنقد السلبي.

فعالم الدين ـ من منظور الشيرازي ـ يجب أن يفهم منطق العصر، ويستوعب المتغيرات، ويقرأ الثقافة المعاصرة كي يمكنه التفاعل الإيجابي مع تطورات الزمان، ومتغيرات الأفكار.

الخلاصة:

لقد استطاع الإمام الشيرازي (رضوان اللّه عليه) بهذه

الخطوات المهمة على طريق التجديد والتطوير أن يحدث تغييراً نوعياً في الحوزات العلمية التي أسسها، وأن يربي فيها جيلاً من المجتهدين والعلماء والخطباء والكتاب المتميزين والمستنيرين الذين أسهموا بفاعلية في تنشيط المناشط الثقافية والاجتماعية والدينية، مما كان له أكبر الأثر في تنمية التدين في المجتمع، وفي زيادة مساحة التواصل مع الشرائح المثقفة، وفي مضاعفة التفاعل مع قضايا العصر ومتغيراته.

فالمطلوب من عالم الدين في هذا العصر، وفي كل عصر، أن يتعامل مع قضايا عصره بدل أن يهرب إلى مشكلات الماضي، وأن يُنظّر لمسائل زمانه بدل أن يُجهد نفسه لمسائل زمان قد انقضى، وأن يتفاعل مع جيله من الأحياء بدل التفاعل مع الموتى، وأن ينفتح على العصر بدل أن ينغلق على نفسه؛ فالعالم هو مرآة الناس، ويفترض فيه أن يكون الموجه والقائد والرائد للمجتمع.. وهذا ما يتطلب منه أن يؤهل نفسه علمياً وعملياً على أرقى المستويات، وأفضل الدرجات.. ولاشك أن هذه مهمة صعبة لكنها ليست مستحيلة بالتأكيد.

هوامش الفصل الثالث

(١) للمزيد من الاطلاع انظر كتاب: كيف ينبغي أن تكون قم المقدسة؟ للسيد محمد الشيرازي.

(٢) دور الحوزات العلمية في بناء المجتمع، السيد محمد الشيرازي، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م. مأخوذ من موقع الإمام الشيرازي على الإنترنت: www.alshirazi.com

(٣) إلى وكلائنا في البلاد، السيد محمد الشيرازي، مطبعة أسعد، بغداد ـ العراق، الطبعة الأولى ١٣٩١هـ، ص١٥.

(٤) نفس المصدر السابق، ص١٠١.

(٥) تجارب محمد جواب مغنية بقلمه، إعداد: عبدالحسين مغنية، دار الجواد، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م، ص٥٢.

(٦) إلى وكلائنا في البلاد، مصدر سابق، ص٣٠.

(٧) المعهد الإسلامي بين الأصالة والتطوير، السيد محمد تقي المدرسي، دار النخيل، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

مسألة التجديد في المرجعية الدينية

التجديد في المرجعية الدينية

مرت مؤسسة (المرجعية الدينية) عند الشيعة بمراحل مختلفة، وأخذت تتطور تبعاً لتطور الزمان والمكان، وتوسع الحاجات والأهداف، حتى أصبحت اليوم لها من التأثير والقوة ما لا يمكن لأحد تجاهله، إلا أن ذلك لا يعني أنها لا تعاني من نواقص وثغرات ونقاط ضعف. فبالرغم من أن المرجعية الدينية كجهاز وكيان ومؤسسة تمتلك الكثير من عناصر القوة والتأثير إلا أنها في الوقت نفسه بحاجة مستمرة للتطوير والتجديد والتحديث إذا ما أريد لها أن تحافظ على قوتها، وأن تنمي من قدرتها على مواكبة المتغيرات المتسارعة، والتطورات المتلاحقة في حياتنا المعاصرة.

والمجددون والمصلحون من الفقهاء العظام كانوا على طول التاريخ يسعون مخلصين لتطوير المرجعية، وهذا ما جعلها تتطور باستمرار، إذ لم يكن كيان (المرجعية الدينية)

موجوداً في الماضي كما هو عليه الحال الآن حيث تطور كثيراً بمرور الزمن، وفي أكثر من بعد وجانب واتجاه.

ولأن مؤسسة (المرجعية الدينية) كأي شيء آخر يمكن التجديد والتطوير في آلياته ووسائله وأدواته فهو قابل بالتالي إلى الكثير من التطوير والتجديد؛ لأن مثل ذلك ليس شيئاً ثابتاً بل هو خاضع للمتغيرات، ويجب أن تواكب المرجعية الدينية ذلك كي تتمكن من مواكبة متغيرات العصر وتطوراته.

ونتيجة طبيعية للتطور الهائل في مختلف العلوم والمعارف، وما تولَّد عن ذلك من إشكاليات جديدة، وواقع متشابك ومعقد، فإن من الطبيعي أيضاً أن تتطور الوسائل والأساليب في كيان (المرجعية الدينية) كي تتمكن من الاستجابة لتحديات العصر ومتطلباته.

وقد سعى العديد من كبار المراجع إلى تطوير (المرجعية الدينية) بما يتناسب مع متطلبات المرحلة الراهنة، وبما يخدم أهداف الإسلام وقضايا المسلمين. ويُعد الإمام الشيرازي واحداً من أبرز الفقهاء الكبار الذين حملوا راية التجديد والتطوير في مؤسسة (المرجعية الدينية) وذلك انطلاقاً من معرفة سماحته بالمخاطر والتحديات التي تواجه الإسلام

والمسلمين، واحتكاكه الدائم بالواقع الخارجي، وقربه من الناس، ومعرفته بآلامهم وآمالهم... ولذلك يرى سماحته أنه لا يمكن للمرجعية الدينية أن تؤدي وظائفها وتقوم بواجباتها بنفس الأساليب والأدوات المتبعة في الماضي، بل لابد لها أن تطور من أساليبها وأدواتها، وأن توسع من أهدافها وصلاحياتها. فالمرجعية بما أنها القائد للأمة والموجه لها والمرشد لمسيرتها يجب أن تتطور بما يمكنها من القيام بمسؤولياتها وواجباتها.

وقد كتب الإمام الشيرازي (رضوان اللّه عليه) أكثر من كتاب عن (المرجعية الدينية) أوضح فيها رؤيته حول وظائف المرجعية وواجباتها، وواجبات الأمة تجاهها، وأهمية التواصل والتفاعل بين المرجعية والأمة. فالإمام الشيرازي لا يحصر مسؤولية المرجع في الإفتاء والقضاء كما ذهب إلى ذلك جماعة من الفقهاء؛ بل يرى ـ بالإضافة إلى ذلك ـ مسؤوليات ثقافية واجتماعية واقتصادية وسياسية تقع على عاتق المرجع الديني. فالمرجعية ـ بنظر الإمام الشيرازي ـ هي القائد للأمة، وبالتالي تتحمل مسؤوليات ضخمة في إدارة المسلمين، ونشر الإسلام، والعمل على استعادة دوره في الحياة العامة.

وطبعاً قد يحول الواقع السياسي عن قيام (المرجعية

الدينية) بمسؤولياتها وواجباتها كما هو واضح في بعض فترات التاريخ مما يضيق من قدرة (المرجعية الدينية) على القيام بكافة واجباتها. ومما لاشك فيه أن هذا يشكل أحد العوامل الرئيسة في انعزال أو عزل (المرجعية الدينية) في بعض الفترات التاريخية نتيجة لسيطرة الدكتاتورية والاستبداد على الأمة، وما مارسه ويمارسه المستبدون على طول التاريخ من أجل فرض القهر والاضطهاد ضد كل القوى الفاعلة والناشطة في المجتمع والتي من أبرزها (المرجعية الدينية) أما عندما تسمح الظروف السياسية للفقهاء الأعاظم (رضوان اللّه عليهم جميعاً) بالتحرك والنشاط نجد أن هناك نشاطاً ملحوظاً وربما تحركاً غير عادي في مؤسسة (المرجعية الدينية) كما هو مسجل في بعض الانعطافات التاريخية.

وعليه، فقدرة المرجعية الدينية على التحرك والنشاط قد يتسع وقد يضيق تبعاً لظروف كل مرحلة، وفترة زمنية. كما أن لشخصية المرجع نفسه، ولقناعاته الفقهية والثقافية والسياسية دوراً مؤثراً في تحديد مسيرة المرجعية ومسارها.

وقد تميزت مرجعية الإمام الشيرازي (قدس سره الشريف) بالنشاط والحيوية والفاعلية والحركية، وهذا ما

جعل لمرجعيته تأثيراً ملحوظاً وقوياً في الساحة الإسلامية. حيث تمكنت هذه المرجعية في فترة ليست بالطويلة من إحداث موجة ثقافية واعية في الأمة، ومن تنمية رشيدة في الوعي والعمل السياسي، ومن تربية جيل من العلماء والمثقفين والمفكرين، ومن استقطاب شرائح واسعة في الساحة الإسلامية وبالخصوص في بلدان الخليج... وهو ما انعكس بدوره على صياغة المجتمع والأمة بشكل جديد ومختلف عما كان عليه في الماضي القريب فضلاً عن البعيد.

لقد كانت مرجعية الإمام الشيرازي مرجعية فاعلة وناشطة وهذا ما مكنها من التأثير الاجتماعي، بالرغم مما مرت به هذه المرجعية الرائدة من إشكاليات واستفهامات وضغوط مختلفة ومتنوعة، إلا أن نشاط ومؤهلات الإمام الشيرازي العلمية والعملية قد جعلته يتجاوز مختلف الحملات والضغوط التي تعرض ويتعرض لها ـ عادة ـ كل مصلح ومجدد.

ولم يقتصر الأمر على تجاوز الأفعال السلبية التي كانت موجهة ضد مرجعية السيد الشيرازي بل استطاعت هذه المرجعية أن تقوم بصنع الأفعال بدلاً من التركيز على ردود الأفعال، لأنها كانت تمتلك رؤية متكاملة لما يجب أن تكون

عليه (المرجعية الدينية) في هذا العصر. أضف إلى ذلك أن شخصية الإمام الشيرازي لم تكن شخصية عادية؛ بل كانت شخصية متميزة ومبدعة بكل المقاييس، وربما هذا يفسر لنا أيضاً أنها كانت على الدوام شخصية مثيرة للجدل!

وإذا كان الإمام الشيرازي قد رحل من هذه الدنيا الفانية إلى دنيا الخلود والبقاء إلا أن ما تركه للأمة من آثار علمية وعملية سيبقى ما بقي للدنيا خلود.

مسؤوليات المرجعية الدينية:

كان للمراجع العظام على طول التاريخ دور مؤثر في حفظ الإسلام وأحكامه، وصيانة الأمة من التأثر بالانحرافات الفكرية والثقافية، وتقوية التدين في المجتمع، ومقاومة حملات التغريب والعلمنة والتضليل، والوقوف ضد الغزاة والمستعمرين والمستبدين... وفي كل ذلك يحكي لنا التاريخ قصصاً بطولية لجهاد وتضحيات المراجع والفقهاء العظام (رضوان اللّه عليهم أجمعين).

وبما أن للمرجعية الدينية موقعية متقدمة في توجيه الأمة وقيادتها والتأثير فيها؛ ولذلك فهي تتحمل مسؤوليات ضخمة، وتزداد هذه المسؤوليات ضخامة كلما ازدادت المخاطر والتحديات التي تواجه الأمة الإسلامية وبالخصوص

في هذا العصر حيث يواجه المسلمون تحديات جديدة لم تكن موجودة من ذي قبل. كما يضاعف من مسؤولية الفقهاء والمراجع والعلماء في مواجهة تلك التحديات والمخاطر والعمل على تجاوزها بما يضمن حفظ الإسلام الأصيل من التشويه والتزوير والتحريف، وبما يحافظ على روح التدين وجوهره عند الأجيال الحاضرة والقادمة.

والفقهاء مجمعون على ضرورة حفظ قيم الإسلام وأحكامه، وتقوية التدين في البنية الاجتماعية، ومقاومة كل انحراف مهما كان شكله أو لونه؛ وإن كانوا يختلفون على مقدار سعة مسؤولية المراجع والفقهاء. ويعود هذا التباين للاختلاف في المباني الفقهية تجاه مسألة (ولاية الفقيه) ومقدار سعتها وضيقها، وكذلك مسألة (وحدة المرجعية والقيادة) أم الفصل بينهما، وفي كل ذلك آراء ونظريات متباينة ـ لسنا الآن بصدد البحث فيها ـ ولكن ما يجب قوله هنا: إن الجميع يتفق على أهمية الحفاظ على قيم وتعاليم الإسلام، والوقوف بوجه الانحرافات العقدية والفكرية ومقاومتها؛ وإن اختلفت الآراء حول وسائل تحقيق ذلك.

ويرى الإمام الشيرازي ـ كما ذهب إلى ذلك أيضاً جماعة من الفقهاء ـ أن تكليف المرجع هو (إدارة المسلمين،

دينياً ودنيوياً) وهذا ما يجعل من المرجع يتحمل مسؤوليات كبيرة وواجبات عديدة؛ لأن إدارة المسلمين من الناحية الدينية والدنيوية يتطلب القيام بأداء الكثير من المسؤوليات الضخمة والتي يوجزها الإمام الشيرازي في عشرين بنداً وهي:

١- أجوبة المسائل.
٢- الإفتاء.
٣- إرشاد الناس.
٤- الدعوة إلى الإسلام.
٥- الأمر بالمعروف.
٦- النهي عن المنكر.
٧- تأليف الكتب.
٨- تنظيم الحوزة العلمية.
٩- بعث الوكلاء.
١٠- الإصلاح بين الناس.
١١- إرسال المبشرين.
١٢- جمع الأموال وتوزيعها.
١٣- ترفيع مستوى المسلمين.
١٤- القضاء.
١٥- الحيلولة بين الظالم والمظلوم.

١٦- التحفظ على قوانين الإسلام.
١٧- الوقوف دون تسرب الأفكار الباطلة.
١٨- رد المظالم.
١٩- قضاء حوائج الناس.
٢٠- حفظ البلاد الإسلامية من الأعداء[1].

ومما سبق يتضح أن الإمام الشيرازي يرى أن مسؤوليات المراجع العظام هي مسؤوليات واسعة وكبيرة وضخمة، ولا تنحصر في الإفتاء وأجوبة المسائل الشرعية، ولا بالقضاء.. وإن كان هذا شيئاً مهماً في واجبات المراجع ومسؤولياتهم الشرعية؛ بل إن مسؤولياتهم تتسع باتساع أهداف الإسلام وغاياته، وبسعة التحديات والمخاطر التي تواجه الأمة. فالمرجعية -في مفهوم الشيرازي- تتحمل مسؤوليات فقهية، ومسؤوليات عقدية، ومسؤوليات ثقافية، ومسؤوليات فكرية، ومسؤوليات اقتصادية، ومسؤوليات اجتماعية، ومسؤوليات سياسية... إلخ. وبعبارة أخرى: تتحمل المرجعية مسؤولية الحفاظ على الإسلام وإدارة المسلمين، وهذا يتطلب -فيما يتطلب- من المرجعية أن تضع مشروعاً واضح المعالم لإدارة المسلمين تتحدد فيه الأولويات والأهداف، وترسم فيه الوسائل والأدوات لتحقيق تلك الأهداف. كما يتطلب أن

يكون عند المرجعية جهاز إداري منظم يدار بأحدث الوسائل الإدارية الحديثة كي تتمكن المرجعية الدينية في هذا العصر المتطور من إدارة المسلمين؛ وإلا فإن الاقتصار على الطرق القديمة في إدارة المرجعية لا يستطيع أن يحقق الأهداف الكبيرة التي تسعى المرجعية الدينية من أجل تحقيقها.

الإمام الشيرازي قدس سره كان يحمل مشروعاً للأمة يتمثل ـ كما أوضح ذلك في الكثير من كتبه ـ في استنهاض الأمة حضارياً، والعمل على عودة الإسلام إلى الحياة العامة، ومقاومة الانحرافات العقدية والفكرية والثقافية والسياسية، وتنمية التدين في الساحة الاجتماعية، واستقطاب الشباب والمثقفين إلى الدين... وغير ذلك كثير.

ومن أجل تحقيق تلك الأهداف كان للإمام الشيرازي تصور واضح للعمل المرجعي؛ فقد كتب كتاباً إلى الوكلاء تحت عنوان (إلى وكلائنا في البلاد) أوضح فيه ما يجب على الوكلاء القيام به من أعمال لخدمة الدين والمجتمع. كما أوضح في كتابه (المرجع والأمة) مسؤوليات المرجع وواجباته وحقوقه، كما بيَّن فيه أيضاً تكليف الأمة تجاه المرجع، وتكليف المرجع تجاههم، وأهمية التفاعل بين المرجعية والأمة.

وفي كتاب ثالث أسماه (الحاجة إلى علماء الدين) أوضح فيه ما يجب على العالم أن يتصف به من أخلاقيات وسلوكيات حَسَنة وسوية، وأهمية وضرورة الحاجة إلى علماء الدين لخدمة الإسلام والمسلمين، كما فَصَّل فيه القول حول مسؤوليات علماء الدين وواجباتهم.

وفي كتاب رابع أسماه (إلى أبنائنا في البلاد الأجنبية) بَيَّنَ فيه ما يجب على الشباب الذين يذهبون إلى الدراسة أو العمل في البلاد الغربية أو الشرقية القيام به من أعمال ومسؤوليات، كما أوضح فيه كيفية المواءمة بين متطلبات الإسلام الذين هم أتباعه وبين أجواء تلك البلاد التي لا تمت إلى الإسلام بصلة.

وفي كتاب خامس أسماه (نحو يقظة إسلامية) يضع فيه خطة شاملة للعمل من أجل تحضير المسلمين للتقدم السريع كما عبَّر سماحته عن ذلك في مقدمة الكتاب.

ولم يقتصر الإمام الشيرازي على تلك الكتب؛ بل كتب في كل المجالات، وإلى كل الشرائح والطبقات، وعلى مختلف الأصعدة والمستويات... وفي كل موضوع ومسألة يضع الإمام الشيرازي تصوراً واضحاً للعمل، وخطة محكمة ترتكز على نقاط محددة؛ فالإمام الشيرازي (رضوان اللَّه

عليه) كان صاحب نظرية ورأي في مختلف الجوانب الحياتية من الاجتماع والاقتصاد والسياسة والثقافة والفكر والبيئة.. وهذا ما جعل من مرجعية الإمام الشيرازي مرجعية متميزة ومجددة ومتجددة على الدوام.

مشروع التجديد في العمل المرجعي:

لم يكتفِ الإمام الشيرازي (رضوان اللَّه عليه) ببلورة رؤية واضحة للعمل المرجعي، بل إنه كان صاحب مشروع عملي في المرجعية الدينية؛ فقد اتسمت مرجعية الإمام الشيرازي بالنشاط الدائم، والعمل المتواصل، والإبداع الخلاّق، والتجدد المستمر، والفاعلية المركزة.

ويمكننا أن نلخص أهم سمات المشروع العملي الذي سار عليه الإمام الشيرازي في العمل المرجعي بالعناصر التالية:

١- مأسسة الأعمال:

يؤمن الإمام الشيرازي بضرورة مأسسة الأعمال كي تستطيع القيام بدورها وخصوصاً في هذا العصر؛ عصر المؤسسات الكبرى، والتجمعات القوية، والتكتلات العملاقة. أضف إلى ذلك ضخامة التحديات التي تواجه

المجتمعات المسلمة مما يستدعي إحداث نقلة نوعية في الجهاز المرجعي، وتحويله من أعمال فردية محدودة إلى أعمال ترتكز على العمل المؤسسي المنظم.

وهذا بالضبط ما قام به الإمام الشيرازي حيث انتقل بجهاز ومؤسسة (المرجعية الدينية) من القيام بأعمال محدودة ويغلب عليها الطابع الفردي إلى القيام بأعمال كبيرة ترتكز على العمل المؤسسي المنظم والحديث.

فالإمام الشيرازي كثيراً ما يدعو علماء الدين إلى ضرورة الاهتمام ببناء المؤسسات، حيث يقول ما نصه: « على العالم أن يهتم لبناء المؤسسات بمختلف أشكالها، كالمؤسسات الدينية من قبيل المساجد والمدارس، والمؤسسات الصحية كالمستوصفات، والمؤسسات الاجتماعية كدور العجزة، والمؤسسات المالية كالبنوك.. إلى غيرها، فإن لتأسيس المؤسسات فوائد جمة مثل التفاف الناس حول الدين، وقضاء حوائج الناس التي هي أهم الأمور الإسلامية، وسيطرة الإسلام على المجتمع، فإن المجتمع منقاد إلى من يقوم بحاجته، بالإضافة إلى أنه كلما توسعت المؤسسات الإسلامية تقلصت المؤسسات غير الإسلامية، سواء كانت مؤسسات ضد الإسلام كمؤسسات التبشير، أو مؤسسات حيادية

كالمؤسسات التي يقوم بها الناس لأجل التجارة أو لمجرد الخير والنفع »[٢].

وقد قام الإمام الشيرازي شخصياً وكذلك تلامذته وطلابه وأتباعه بتأسيس العديد من المؤسسات وفي مختلف المجالات، وتعتبر مرجعية الإمام الشيرازي من أنشط المرجعيات المعاصرة في تأسيس المؤسسات، بَيْدَ أنك أينما توجهت بوجهك ستجد أن هناك العديد من المؤسسات التابعة لمرجعية الإمام الشيرازي. فقد عُرِفَ عن سماحته ﷺ اهتمامه الشديد ببناء المؤسسات، وكذلك تحريض وتشجيع تلامذته وطلابه بضرورة تأسيس المؤسسات، سواء كانت مؤسسات ثقافية أو اجتماعية أو دينية أو سياسية أو اقتصادية... وغير ذلك من أنواع المؤسسات، وهو ما أثمر الكثير من المؤسسات المختلفة والمتنوعة وفي مختلف البلدان والمجتمعات المسلمة.

٢- تنوع المشاريع:

يُلاحَظ أن مشاريع الإمام الشيرازي ومؤسساته تتسم بالتنوع والكثرة، فهي لم تقتصر على جانب واحد بل شملت مختلف الجوانب، وينبع هذا التنوع من طبيعة تنوع الحياة،

فإذا أردنا استيعاب جميع جوانب الحياة لابد من مشاريع ومؤسسات تغطي المساحة الواسعة من صور الحياة المختلفة.

ولأن الإمام الشيرازي كان يعيش عصره، ويفهم زمانه، سعى بجد وإخلاص وبمختلف الوسائل والأساليب من أجل خدمة الإسلام، وإنقاذ الجيل المعاصر من الأحزاب الفاسدة، والأفكار الضالة، والسلوكيات المنحرفة. وهذا ما جعل الإمام الشيرازي ينتقل بالمرجعية الدينية من الاهتمام بلون أو لونين من ألوان العمل الديني لتغطي مساحات واسعة ومتنوعة، وذلك لوعيه قدس سره بخطورة المرحلة، وضرورات العصر، ومنطق هذا الزمان. فمن الطبيعي بعد ذلك أن نجد هذا التنوع المتناسق من المشاريع والمؤسسات التي شملت الكثير من أبعاد الحياة المعاصرة.

٣- الانتشار والتركيز:

كان الإمام الشيرازي يعمل على إنشاء المشروع الأم، ويرعاه بما يحتاج إليه من رعاية من أجل أن يصبح هذا المشروع مولداً لمشاريع أخرى. وهكذا كان المشروع الواحد يُولد مشاريع كثيرة، ليس في المنطقة التي قام فيها المشروع الأول بل يمتد إلى مناطق أخرى من العالم الإسلامي.

وبهذه الطريقة استطاع الإمام الشيرازي أن يمتد على رقعة العالم الإسلامي، فمن المراكز الإسلامية إلى مراكز الدراسات إلى الهيئات المسجدية إلى الحوزات العلمية، لأن النواة كانت قوية، وهو بنفسه، كان يرعى النواة فكانت تتحول إلى شجرة مورقة تعطي ثمارها كل حين[٣].

فالإمام الشيرازي (رضوان اللَّه عليه) يتمتع بأفق واسع، ورؤية شاملة للعالم، فهو لم يكن ينظر إلى المكان الذي يقيم فيه، بل كان ينظر إلى كل العالم على سعته، وإلى كل زاوية من زوايا الدنيا ليقيم عليها مشروعاً أو مؤسسة، أو ليرسل إليها مُبلِّغاً أو مرشداً، أو ليبعث إليها كتاباً أو موسوعة.

وقد سمعت منه شخصياً أكثر من مرة دعوته إلى الانتشار في آفاق الدنيا، والعمل على نشر الإسلام، وهداية حتى غير المسلمين إلى الإسلام؛ فقد كان فكره فكراً عالمياً، وتفكيره تفكيراً عالمياً، ورؤيته رؤية عالمية... فكان ينظر إلى أبعد مما يفكر فيه ـعادةـ أصحاب الرؤية الضيقة التي لا تتجاوز المدينة أو القرية التي يمكثون فيها!! كان ينظر إلى كل العالم بمدنه وقراه، وكان يعتبر العالم على سعته ميداناً للعمل المرجعي والديني. ولذلك تجد أن مشاريع ومؤسسات الإمام

الشيرازي قد شملت القارات الخمس، وأي مشروع من مشروعات الإمام الشيرازي كان يتولد منه ـ في الغالب ـ أكثر من مشروع جديد، مما أثمر عن عدد هائل من المشاريع والمؤسسات المتنوعة والمتناسقة.

٤- استقطاب الكفاءات:

لم يحصر الإمام الشيرازي نفسه بمجموعة معينة من الناس، فقد كان رأيه أن يستفيد من كل صاحب قدرة على العمل مهما كان انتماؤه المرجعي أو السياسي أو حتى الطائفي إذ كان يدعو كوادره إلى التعاون مع الجميع.

وهذا منتهى الحكمة في منهج الإمام الشيرازي فلو كان قد استغنى عن الآخرين، لما كان بمقدوره أن يقوم بتلك الإنجازات الكبيرة في حياته، ولما كانت له هذه الامتدادات الكبيرة في البلاد الإسلامية والبلدان الغربية[٤].

وقد تميز الإمام الشيرازي بقدرة فائقة على استقطاب الكفاءات وبالخصوص كفاءات الشباب والشرائح المثقفة، ولذلك تميزت مرجعية الإمام الشيرازي بأن أكثر أتباعها من الشباب والمثقفين، وذلك لأن الإمام الشيرازي كان يفهم كيف يتعامل مع الشباب، كما مع المثقفين، ولديه من

الأخلاقيات الراقية والأفق العلمي الواسع ما جعله قادراً على استقطاب الطاقات والكفاءات العلمية.

ولا يعني هذا عدم اهتمام سماحته ﷺ بالشرائح الاجتماعية الأخرى كالشيوخ والأطفال، بَيْدَ أنه كان يهتم بكل الشرائح الاجتماعية، والفئات العُمرية؛ وإنما يعني أن الشباب والمثقفين كانوا بحاجة إلى وسائل مؤثرة وقوية ومقنعة، حيث كانت شريحة الشباب وكذلك شريحة المثقفين أبعد ما تكون عن التوجه الديني في حقبة الخمسينيات والستينيات والسبعينيات من القرن المنصرم. ومع ذلك استطاع الإمام الشيرازي بما يملك من مؤهلات أخلاقية وعلمية استقطاب العديد من الشباب والمثقفين.. وهذا ما يعطي للإمام الشيرازي ميزة أخرى تضاف إلى ميزاته ومميزاته العديدة.

وكان هدفه من استقطاب الطاقات الشابة والكفاءات العلمية هو خدمة الإسلام من خلال توظيف هذه الطاقات فيما ينفع الإسلام والمسلمين.

وبالفعل تمكَّن الإمام الشيرازي من استقطاب الكثير من الكفاءات والطاقات العلمية، وقد ساعده ذلك على زيادة نشاطاته ومؤسساته التي كانت كلها في خدمة أهداف الإسلام وقضايا المسلمين.

٥- تطوير وسائل العمل:

لم يقتصر الإمام الشيرازي (رضوان اللّه عليه) على الوسائل القديمة المتبعة في العمل الديني، بل ابتكر وسائل جديدة، وأفكار جديدة كي يتمكن من التأثير على الشرائح الاجتماعية المختلفة وبالخصوص الشباب والمثقفين.

وإذا كان الإسلام لا يتغير إلا أن وسائل نشر الإسلام تتغير، فليس من الصحيح أن يستمر العمل المرجعي بنفس الوسائل والأساليب والأنماط المتعارف عليها منذ زمان الأقدمين من الفقهاء الأعاظم (رضوان اللّه عليهم أجمعين) بل لابد من إحداث نقلة نوعية في وسائل العمل وأدوات التبليغ الديني بما يتماشى مع متطلبات العصر ومقتضيات الزمان. والإمام الشيرازي هو أحد المراجع العظام ممن أدركوا ضرورة التحديث والتجديد في وسائل العمل المرجعي والديني بما يتناسب مع مقتضيات المرحلة الزمنية المعاشة.

وقد ابتكر الإمام الشيرازي الكثير من الوسائل الجديدة في العمل الديني كالاهتمام بنشر الكتيبات وبمختلف اللغات، وإنتاج الأفلام الدينية وعرضها، وتأسيس الكشافة الإسلامية، والنادي الإسلامي، وفرق للأناشيد الإسلامية. كما ابتكر طريقة التبليغ السيار اليومي، والمسرح الإسلامي،

وإقامة المهرجانات والاحتفالات الكبرى. كما أسس العديد من المكتبات الخاصة والعامة، وكذلك أسس الكثير من المدارس المختلفة... وغير ذلك كثير.

وقد كان لسماحته ﷺ اهتمام ملحوظ بالإعلام، فعصرنا اليوم هو عصر الإعلام، والتبليغ للإسلام من خلال الإعلام الحديث، والإنترنت شيء لا غنى عنه إذا ما أردنا نشر الإسلام في جميع أنحاء العالم.

وقد ابتكر سماحته الكثير من الوسائل الجديدة والشعبية في الإعلام، كما كان يوجه تلامذته إلى الاستفادة من وسائل الإعلام الحديثة في نشر الإسلام والتعريف بقضايا المسلمين.

وكان من تطلعاته التي لم تتحقق ـ لحد الآن ـ هو إنشاء قناة فضائية إسلامية. ففي زيارتي له في جمادى الأولى من عام ١٤٢٢هـ طرح أن من أولوياته الآن هو تأسيس (قناة فضائية إسلامية) تهتم بخدمة أهداف الدين، وقضايا المسلمين في كل مكان، وهداية كل الناس حتى غير المسلمين إلى الإسلام.

وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على الرؤية الواسعة والأفق الكبير الذي كان يتمتع به الإمام الشيرازي، وذلك لإدراكه أنه لا يمكن الاقتصار على نفس الوسائل والأساليب

القديمة فقط، بل لابد من تطوير وتجديد وسائل العمل الديني كي يمكن أن ننشر الإسلام في أوسع قطاع من الناس، ونزيد من قناعات حتى غير المسلمين فضلاً عن المسلمين بغايات الإسلام النبيلة ومقاصده العظيمة، وأن الإسلام صالح لكل زمان ومكان. فنشر الإسلام من خلال وسائل الإعلام الحديثة وكذلك من خلال شبكات الاتصال العالمية كشبكة الإنترنت وغيرها من أهم الوسائل في عالم اليوم للتعريف بالإسلام، والتأثير في الرأي العام المحلي والعالمي.

هوامش الفصل الرابع

(١) المرجع والأمة، مصدر سابق، ص١٢.
(٢) إلى وكلائنا في البلاد، مصدر سابق، ص١٨.
(٣) الإمام الشيرازي.. فكره، منهجه، ومواقفه، عبدالحليم محمد، مؤسسة الفكر الإسلامي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م، ص٦١.
(٤) نفس المصدر السابق، ص٥٦.

الخاتمة

وبعد أن استعرضنا أهم المحاور في مسألة التجديد في فكر الإمام الشيرازي قدس سره نستطيع الوصول إلى الاستنتاجات التالية:

١ـ إن ممارسة التجديد عملية شاقة ومُكلِفة ومضنية، ولكي يمتلك أي عالم أو مفكر القدرة على التجديد يحتاج أن تتوافر في شخصيته مجموعة من المواصفات الأساسية كالشجاعة الفائقة، والإرادة الصلبة، والثقة بالنفس، وبُعد النظر، وفهم العصر... والإمام الشيرازي كان يمتلك هذه المواصفات وهي التي ساهمت في قدرته على ممارسة التجديد رغم وعورة الطريق، وصعوبة الهدف.

٢ـ إن الإمام الشيرازي كان يحمل راية التجديد والإصلاح منذ عقد الستينيات من القرن المنصرم عندما كان

الجو السائد في الوسط الحوزوي آنئذٍ ضد تيار التجديد والتحديث بقوة. ومع ذلك استطاع الإمام الشيرازي أن يتجاوز كل العقبات، وأن يبني جيلاً من العلماء والمفكرين والمثقفين المتنورين ممن يؤمنون بالإصلاح والتجديد والتطوير. كما استطاع أن يؤسس تياراً جماهيرياً عريضاً في الأمة رغم العوائق التي اعترضت طريقه الإصلاحي.

٣ـ لم يقتصر الإمام الشيرازي على إحداث التجديد في بعد واحد من الأبعاد بل شمل جميع الأبعاد كالتجديد في الفقه، والتجديد في الأفكار، والتجديد في الحوزات العلمية، والتجديد في المرجعية الدينية، والتجديد في وسائل وأساليب العمل الديني... وهو ما شكَّلَ انعطافة حقيقية في توجه الأمة، ومسيرة المجتمع، وإنماء الوعي لدى الناس.

٤ـ إن مرجعية الإمام الشيرازي كانت متميزة ومثيرة في آن واحد، ومن المهم للغاية إخضاع هذه التجربة للمراجعة والتقويم الموضوعي، فهي كأي تجربة مرجعية أخرى يجب الاستفادة منها، وهذا يعني ـفيما يعنيـ البناء على نقاط القوة فيها، وتلافي الثغرات والنواقص؛ وذلك بهدف تجديد وتطوير مؤسسة (المرجعية الدينية) لأن التجديد يجب أن يكون عملية مستمرة، ولا يصح أن يتوقف عند

مرحلة معينة، بل يجب تنشيطه وتفعيله بما يخدم أهداف الإسلام وقضايا المسلمين.

٥ـ إن الإمام الشيرازي ترك للأمة الإسلامية تراثاً علمياً ضخماً يزيد على الألف كتاب. ومن المفيد للغاية الانفتاح على هذا التراث، ودراسته دراسة موضوعية، والاستفادة منه في عملية الإنماء العَقَدي والفكري والعلمي. فتراث الإمام الشيرازي العلمي يحتوي على الكثير من الأفكار الجديدة، والنظريات الإبداعية، وهو بحاجة إلى المزيد من الدراسة العلمية والتقويم الموضوعي كي يمكن استثماره في عملية التجديد والإصلاح، كما في عملية الإنماء العلمي والمعرفي، والتوعية الثقافية.

٦ـ إن مظاهر العبقرية، ومعالم العظمة سوف تتجلى أكثر وأكثر في شخصية وفكر الإمام الشيرازي مع مرور الأيام والسنين. وإذا كان البعض لم ينفتح على الإمام الشيرازي وفكره أيام حياته لسبب أو آخر، فإن الجميع مدعوون الآن للانفتاح على فكره الخلاّق، وعلمه الواسع بعد أن رحل من هذه الدنيا الفانية، ولم تعد أية حواجز أو أسباب أو حساسيات تحول دون الانفتاح على تراث وفكر الإمام الشيرازي الضخم والموسوعي.

فالعظماء على مر التاريخ -إلا نادراً- يعرفون أكثر وأكثر بعد مماتهم، أما في حياتهم فإنهم يعانون ألواناً مختلفة من ألوان التشكيك والتسقيط... وهذه هي ماساتنا كأمة، ولابد لنا أن نفكر في تغيير تعاملنا مع فقهائنا وعلمائنا وعظمائنا، فالأمة الواعية هي التي تحترم وتستفيد من عظمائها وعلمائها أحياءً وأمواتاً. أما الأمة المتخلفة فهي التي تحارب عظماءها عندما يكونون أحياءً، وإذا ماتوا أشادوا بهم وبعلمهم وبمكانتهم الرفيعة!

وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين

وصلى اللّه على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين

ثبت المصادر والمراجع

١- **الرضي**، السيد الشريف، **نهج البلاغة**، شرح الشيخ محمد عبده، دار البلاغة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الرابعة ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٢- **السبحاني، جعفر، مصادر الفقه الإسلامي ومنابعه**، دار الأضواء، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

٣- **الشيرازي**، السيد محمد، **الاجتهاد والتقليد**، دار العلوم، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٤- **الشيرازي**، السيد محمد، **المرجع والأمة**، مؤسسة البلاغ، بيروت ـ لبنان، غير مذكور عدد الطبعة ولا تاريخ الطبع.

٥- **الشيرازي**، السيد محمد، **ما هو الإسلام**، مؤسسة الفكر الإسلامي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

٦- **الشيرازي**، السيد محمد، **حول السنة المطهرة**، دار العلوم، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٧- **الشيرازي**، السيد محمد، **السبيل إلى إنهاض المسلمين**، دار المنهل، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.
٨- **الشيرازي**، السيد محمد، **الصياغة الجديدة لعالم الإيمان والحرية والرفاه والسلام**، غير مذكور عدد الطبعة ولا تاريخ الطبع.
٩- **الشيرازي**، السيد محمد، **إلى الكتّاب الإسلاميين**، الناشر: هيئة محمد الأمين، الطبعة الثانية ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م، غير مذكور مكان الطبع.
١٠- **الشيرازي**، السيد محمد، **طريق النجاة**، دار الصادق، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.
١١- **الشيرازي**، السيد محمد، **الرجوع إلى سنن اللّه تعالى**، مؤسسة الوعي الإسلامي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.
١٢- **الشيرازي**، السيد محمد، **كيف ينبغي أن تكون قم المقدسة**، هيئة محمد الأمين، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.
١٣- **الشيرازي**، السيد محمد، **دور الحوزات العلمية في بناء المجتمع**، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م، مأخوذ من موقع الإمام الشيرازي على الإنترنت: www.alshirazi.com

١٤- **الشيرازي**، السيد محمد، **إلى وكلائنا في البلاد**، مطبعة أسعد، بغداد ـ العراق، الطبعة الأولى ١٣٩١هـ.
١٥- **غير مذكور اسم المؤلف**، **في رحاب الإمام الشيرازي**، طبع عام ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م، غير مذكور مكان النشر ولا عدد الطبعة.
١٦- **محمد**، عبدالحليم، **الإمام الشيرازي.. فكره، منهجه ومواقفه**، مؤسسة الفكر الإسلامي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.
١٧- **المدرسي**، السيد محمد تقي، **المعهد الإسلامي بين الأصالة والتطوير**، دار النخيل، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.
١٨- **المطهري**، مرتضى، **محاضرات في الدين والاجتماع**، الدار الإسلامية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.
١٩- **مغنية**، محمد جواد، **الإسلام بنظرة عصرية**، دار الجواد، بيروت ـ لبنان، الطبعة الرابعة ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.
٢٠- **مغنية**، عبدالحسين، **تجارب محمد جواد مغنية**، دار الجواد، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.
٢١- **اليوسف**، عبداللّه أحمد، **الشباب.. هموم الحاضر وتطلعات المستقبل**، مؤسسة البلاغ، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

عنوان المؤلف

إلى جميع القراء الأعزاء:

يمكنكم مراسلة المؤلف على العنوان التالي:

المملكة العربية السعودية

المنطقة الشرقية ـ القطيف

الرمز البريدي: ٣١٩١١

ص. ب: ٨٤١

أو على الفاكس رقم: ٨٥١٣٩٤٢ (٠٠٩٦٦٣)

أو الاتصال على الهاتف المحمول: ٠٥٣٨٤٤٩٩١

أو عبر البريد الإلكتروني:

alyousif٥٠٠٠@maktoob.com

صدر للمؤلف

١ـ الإمام الهادي عليه السلام قدوة الثائرين.
٢ـ الشخصية الناجحة.
٣ـ الصعود إلى القمة.
٤ـ شرعية الاختلاف.. دراسة تأصيلية منهجية للرأي الآخر في الفكر الإسلامي.
٥ـ فلسفة الفكر الإسلامي.. قراءة جديدة لأهم الأصول الفكرية في الإسلام.
٦ـ الخمس.. فلسفته وأحكامه.
٧ـ الشباب.. هموم الحاضر وتطلعات المستقبل.
٨ـ الاجتهاد والتجديد.. قراءة لقضايا الاجتهاد والتجديد في فكر الشيخ محمد مهدي شمس الدين.
٩ـ الحوار الإسلامي ـ الإسلامي.. رؤية من أجل إنماء السلم الأهلي.
١٠ـ ثقافتنا في عصر العولمة والإعلام.
١١ـ مسائل التجديد.. قراءة لقضايا التجديد في فكر الإمام الشيرازي (بين يديك).

مسائل التجديد

قراءة لقضايا التجديد في فكر الإمام الشيرازي

يعتبر الإمام الشيرازي شخصية متميزة في كل شيء... في سيرته، وفي سلوكه، وفي فكره، وفي عطائه، وفي إخلاصه، وفي جهاده، وفي زهده، وفي مواقفه... وفي كل بعد من أبعاد شخصيته.

وقد كان الإمام الشيرازي شخصية مجددة حتى سُمي بالمجدد، وهو بحق كذلك؛ فقد كان مجدداً في الفقه، ومجدداً في الفكر والثقافة، ومجدداً في الحوزات العلمية، ومجدداً في المرجعية الدينية... وهذه هي المحاور الرئيسة التي يتناولها هذا الكتاب لاستعراض مسائل التجديد في فكر الإمام الشيرازي.

ولأن التجديد والإصلاح بحاجة إلى ثقة بالنفس، وصلابة في الموقف، وشجاعة في الجهر بالرأي... ولأن الإمام الشيرازي كان يتميز بمثل هذه الصفات وغيرها، فقد كان واحداً من أبرز وألمع دعاة الإصلاح والتجديد في العقود الأخيرة من القرن العشرين.

وهذا الكتاب يسلط الأضواء على الفكر التجديدي عند الإمام الشيرازي على أمل أن يُساهم ذلك في تفعيل وإنماء حركة التجديد في مختلف جوانب وحقول الفكر الديني.

عبدالله أحمد اليوسف